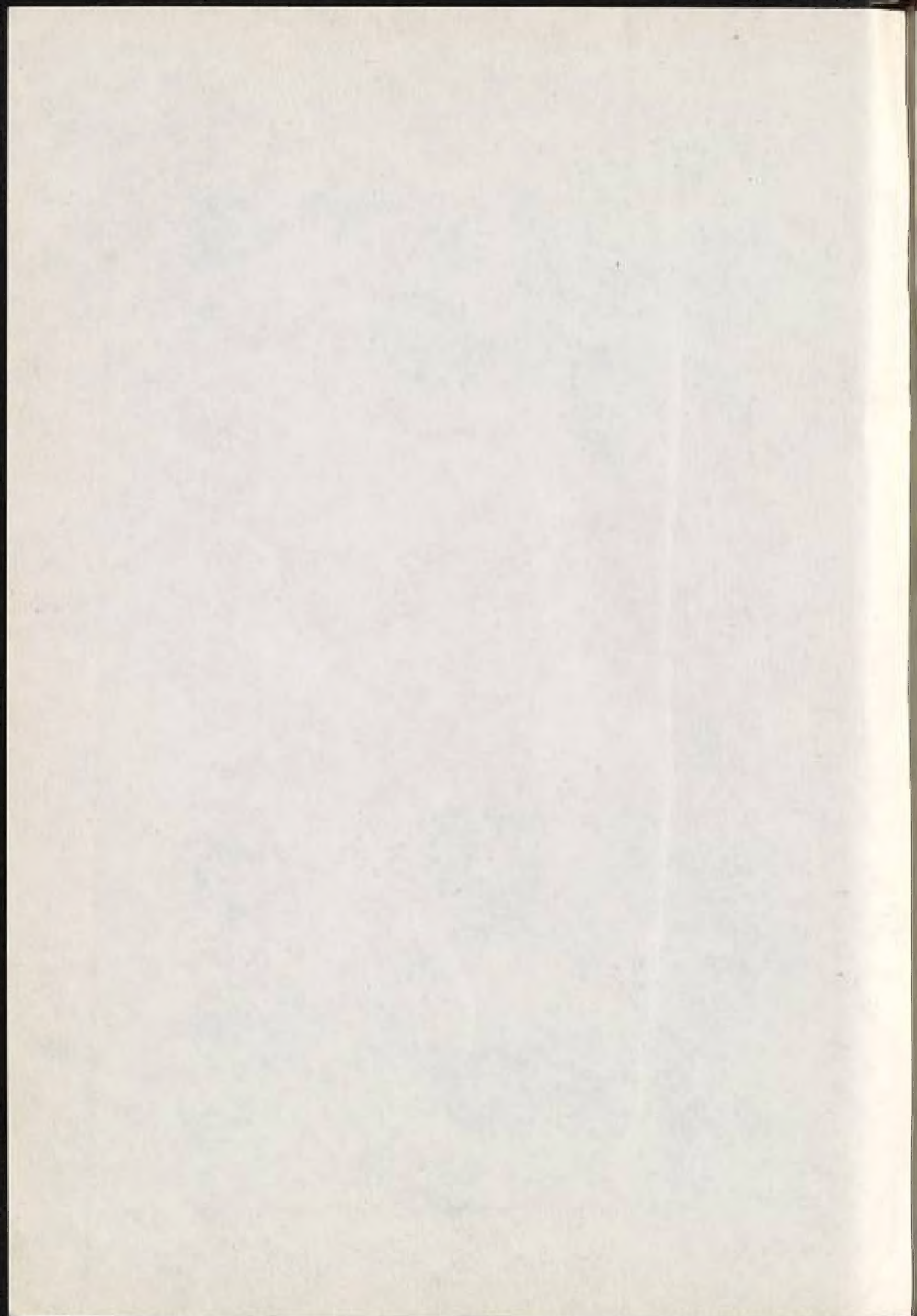
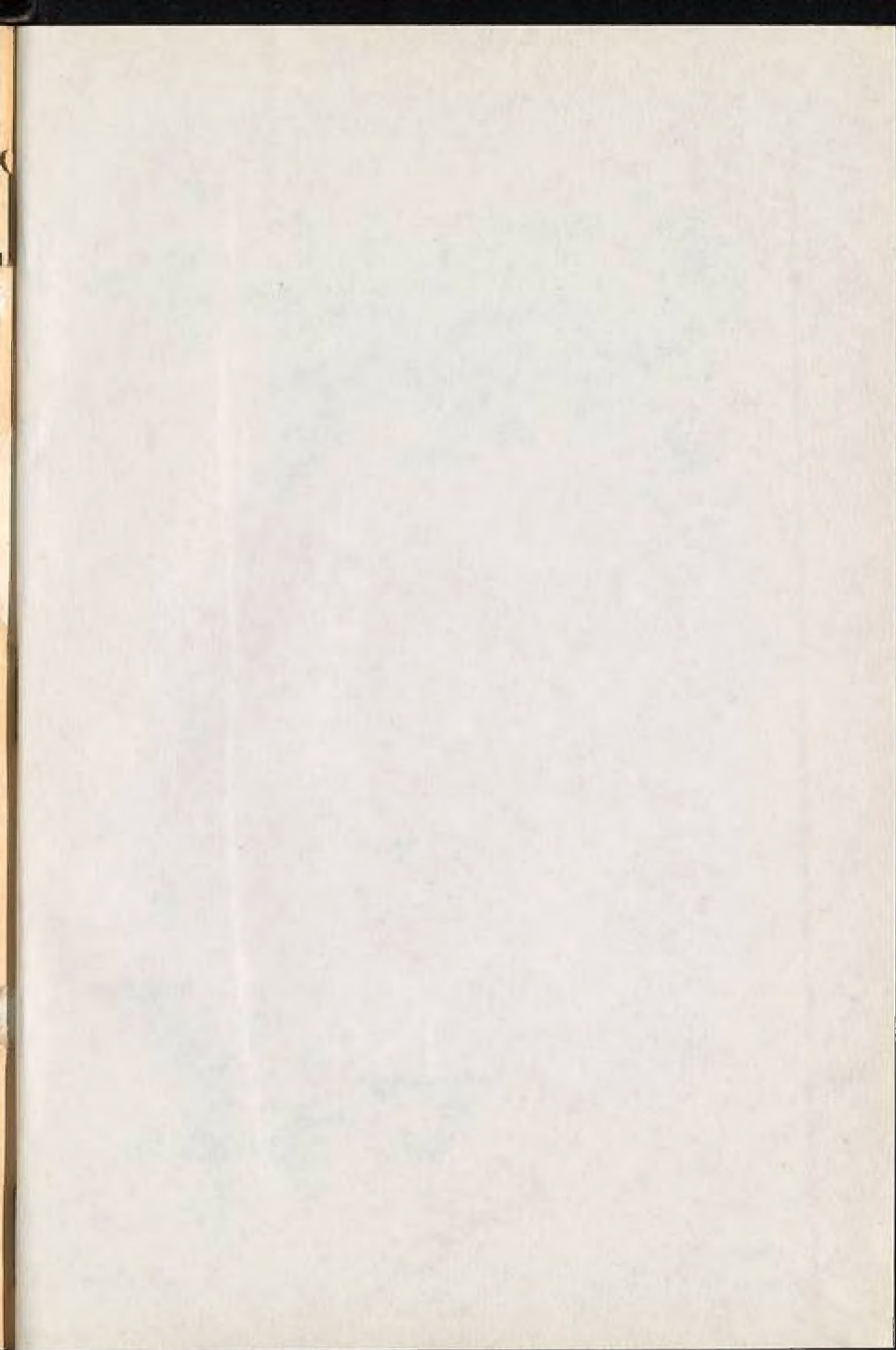




GENERAL
LIBRARY





محمد مهدي الإمام

مدرسة الخيانة

مجموعة قصص واقعية

بغداد - العراق

١٩٥٥

AJ

7838

M 35

M 3

حقوق الطبع والاقتباس الاداعي والسينمائي
محفوظة للمؤلف

الطبعة الاولى ايلول ١٩٥٥

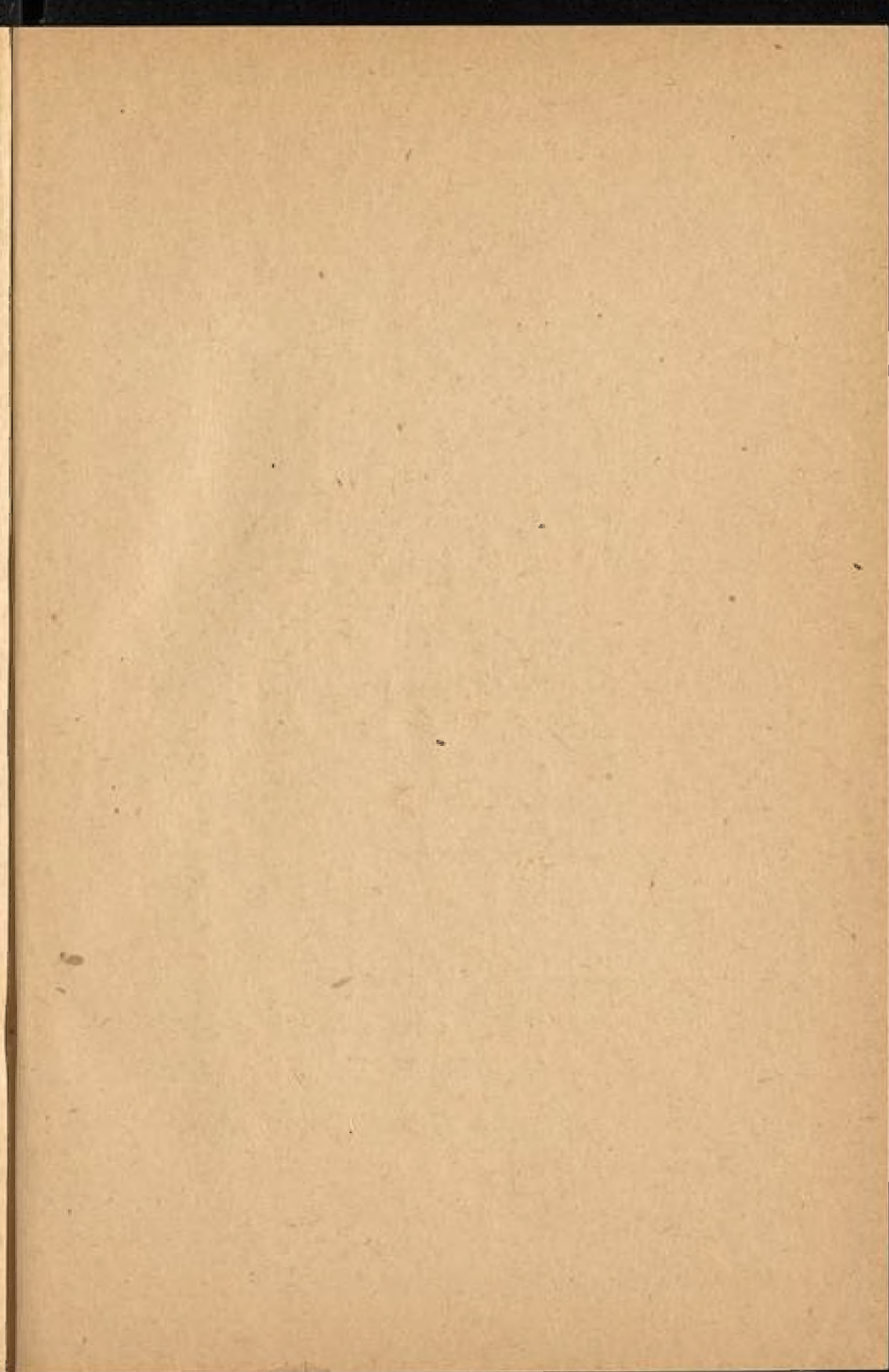
بسم الله الرحمن الرحيم

الاهراء

الى كل مواطن عربي فقد الثقة بنفسه وبأمته
العربية وبإمكاناتها ، فضلّ سواء السبيل ، وانجرف
في سراب الدعارة الضالة المضلّة !..

اسوق اليه هذه الحقائق والافاصيص الواقعية ،
ورائدي ان اثير الطريق امامه ، عساه يهتدي في
غده الى واقعه وحقيقته ، فيغدو حجراً صامداً في
صرح بناء امته العربية ، لا يخذعه الكلام المعسول
الغريب عنه ، او تستهويه المبادئ المستوردة البراقة ،
او تغريه الاماني والاحلام الكاذبة ، التي لا تحمل
في طياتها الا سماً زعافاً يقضي على القومية العربية ،
وكلّ قيم اخلاقية ومناقب روحية فيها ، فيتركها
اشلاء مادية لا قيمة لها ولا مكانة في ما هيأه لها
التاريخ لتحتله في احداق الشمس ...

المؤلف



مقدمة

درجت العادة بين الكتاب الناشئين ان يدفعوا بياكورة
تتاجهم القصصي والادبي الى اديب كبير ليقدّمهم الى جمهور
القرّاء ، ورائدّهم من ذلك :

اولاً : استغلال اسم الاديب الكبير ، ما كان الى ذلك من
سبيل ، رواجاً لكتّابهم ...!

ثانياً : الظفر بكلمة إطراء يشعّون بها نهم غرورهم وخيالاتهم ،
فيدخلهم الظنّ انهم بذلك قد وصلوا الى ما يحملون به ، الى القمة
التي هي غاية ما تصبو اليه نفوسهم ، في حين ما زالوا في بداية
الطريق ... طريق الادب الشاق الطويل ...

وحسبي في باكورة تتاجي هذا ان اقدّم نفسي اليك ايها
القاريء العربي الاني ، وكتّابي عارٍ من المقدمات والمقّبلات
والالّقاء التي يسبقها صاحب المقدمة عادة على الناشئين ، لاني
لست من الجبن بحيث لا اجرؤ على ان اقف وجهاً لوجه امامك ،
دون اطراء ووساطة كاتب شهير ، او شفاعة اديب نخبير ، اقدم

لك نفسي مشغوعة بشخص باكورة نتاجي القصي ، فان رافقتك ،
فلا شك انك لمقبل بنهم على ما ساقدمه لك في الايام المقبلة من
نتاج جديد ..

وان لم تترك - فلن تروفتك رغم مقدّمة الكاتب الكبير -
وستدبر ولا شك عما ادفع به لسوق الادب .

وبين دفتي كتابي هذا اقاصيص عشت بعضها ، وسافتي
الظروف للتعرف على البعض الآخر من ابطالها ..

اذن فابطل كتابي هذا ليسوا من صنع الوهم والخيال ، انما
هم مواطنون من لحم ودم ، ونماذج بشرية من مجتمعاتنا العربي
ذاته ، جرفتهم يوماً الدوامة الحمراء لتجعلهم طلاباً في مدرسة
الخيانة ...

اقدمهم لك على حقيقتهم دون رتوش او تجميل ، كي لا يطغى
فنّ القصة ، وسلاسة الاسلوب على حقيقتهم ، فقد رافقت طوراً
من اطوار حياتهم ، ولي بهم معرفة وثيقة خلال انضوائي طوال
اعوام خمسة تحت لواء هذه المنظمة (الانسانية) ...!

... اجل لقد انجرفت بدوري في الدوامة الحمراء ...!
وقد مرت علي وعلى هؤلاء الاشخاص تجارب قاسية ،
وعار كنا الحياة بافر احبا وراحها ، بغتها وسمينها وعرفنا الكثير
من الخفايا والمعميات ، وتوصلنا الى حقائق ثابتة لا تقبل الجدل ..
بيد اننا استطعنا الاستفادة من تجاربنا القاسية في الحياة ...
بعد ان بان لنا الواقع ، وظهرت نوايا هذه المدرسة الهدامة ...!
وحدثت اخيراً المعجزة ...! واستطعنا ان نتعق من ربيعة

الاغلال التي كانت نكبتنا... ونقلت من الدوامة الجراء.. بعد
ان ادركنا حقيقة هذه المدرسة التي تقذف الى المجتمعات (الانسانية)
افواجاً من (ابطال) التخريب والتهديم ، وعلمنا الى اية هوة
سحيقة تقود البلاد ..

وقد تخرج من قراءتك للكتاب وانت تعرف بعض ابطاله ،
او سمعت اقاصيص مماثلة عن بعض آخر منهم .

قارئ العزيز :

بي شوق لان اصارحك القول انني ما كنت ارجو ان
يكون هذا الكتاب الذي بين يديك باكورة تلك السنوات
الطوال المضنية من العمل الادبي الصامت ، انما كنت اود صادقاً
ان تكون الباكورة كتابي « المهزلة الفاجعة !.. » وهي مجموعة
اقاصيص انسانية اجتماعية ، ولكن لبعض الدوافع الوطنية
والقومية البهجة ، اودت ان يكون هذا الكتاب هو الباكورة ،
فقد شعرت خلال تلك السنوات الخمس العجاف مقسدار الخطر
الكامن ، والمتحفز للوثوب على امتنا العربية ، وانه بات لازماً
على كل اديب عربي لم تجرّفه الدوامة الجراء بعد ، ان يجرّد قلمه
ويغمسه بدماء قلبه ، وبقطة ضميره ، ليضخ هذه الموجة الدافقة
من الادب المترجم او الموضوع ، الذي طغى في السنوات
الاخيرة على ادبنا العربي ، وسواده مترجم عن ادب معروف ،
او موضوع بلون معين ، وجه ذو صبغة حمراء قانية ، وتفوح
منه رائحة الدم الى درجة تركم الانوف !..

لهذا الواجب القومي المقدس ، ومن اجل هذه الدوافع

السامية وحدها ، وبعد ان وجدت ان بعض ابناء شعبنا العربي ،
كاد الانزلاق الى هوة هذه الدوامة ، رأيت من واجبي الوطني
ان اجعل كتابي هذا ، «مدرسة الحيانة» اول كتاب اقدمه لك .
وعساي به اصلح ما افسده سواي ، وابني ما هدم ،
فيثوب بعض ابناء امي العربية الى رشدهم ويعودون الى محبة
العقل والضواب .
والله من وراء القصد ولي التوفيق .

احمد مهدي الامام

بغداد في تموز ١٩٥٥

يصدر تباعاً للمؤلف

- ١ - المهزلة الفاجعة ! .. : مجموعة قصص انسانية
- ٢ - الدوامة الحمراء ! .. : اقصيص وابحاث فكرية
- ٣ - عبودية وحرمان ! .. : مجموعة قصص واقعية



مَجَارَةُ الشَّطْرِجِ



وقفت على رصيف شارع الرشيد صامناً ذاهلاً اكاد انشق غيظاً ،
ومر رجل غصبي يكاد ينفجر ، وانا اشاهد تلك التظاهرة الصغيرة
التي اقبلت من الجسر العتيق وراحت تتقدم في شارع الرشيد .
كان المتظاهرون يهتفون بسقوط الاحلاف الاستعمارية
منددين بحكومات الغرب ، طالبين ابعاد واقصاء القيمين على
شؤون الدولة لانهم اذئاب لارادات اجنبية ، وعملاء للاستعمار
ومآربه !..

ولم يكنف المتظاهرون بهذا القدر من (الوعي الوطني)
والاندفاع والحماس (القومي) ، و (الفيرة) على مصلحة البلاد ..
وحماية شؤونها والدود عن حماها !..

بل تجاوزهم (الاندفاع) - جرياً على عاداتهم - فانهبوا
يهتفون بحياة الاتحاد السوفياتي ، (حامي) الشعوب الضعيفة (عامة)
والذي يقف زعماءه دائماً وابدأ الى (جانب) الدول العربية -
(خاصة) !..

وراحوا يتفنون للحزب الشيوعي العالمي ، (نصير) العامل
والفلاح (الكادحين) ... ولموسكو التي هي (عون) للدول
والشعوب الضعيفة الفاقدة ثقمتها بنفسها كأمة حية ...

ولم ينسوا ان يحبوا اسياد الكرملين الذين (يفضحون
وبشجون) المؤامرات التي تحاك لبلائنا ...

واجلت الطرف بين جموع المتظاهرين ...
كانوا عبارة عن قطيع من الرعاع ، يتسابقون في التصايح
بطريقة فوضوية ، لاسقاط هذه الدولة ، وتعيش تلك ...!

وفجأة ، وقف نظري على بسام ... اجل بسام ذاته
صديقي في الزقاق طوال عهد الطفولة ، ورفيقي على المقاعد
المدرسية في بعض سني دراسي الابتدائية ، اذ به كعادته يسير
في الصفوف الامامية ، ويهتف بحماس ...!

ووقفت التظاهرة في وسط شارع الرشيد وامام مقهى
(مرهون) وهو احد المقاهي (الشعبية) .

وانا ما زلت في مكاني اراقبهم في صمت وذهول ..
واذا بايدي المتظاهرين تتلقف طاولة من المهن وتضعها
على الرصيف ليمتقر عليها بسام بحفة ورشاقة ، واندفاع ظاهر ...
اجل بسام ذاته اعلى الطاولة ، ومد يده الى جيب سترته
واخرج ورقة ، وراح يفتحها ، وابتدأ بخطب بين تصفيق وهتاف
رفاقه (الاشاوس) ...!

ويح امة درعها كشتبان ... وتظاهرة خطيبها بسام ...!
فبسام هذا تلميذ فاشل في جل اطوار حياته الدراسية ،

اقول ذلك لاني رافقته في فترات متقطعة من الصفوف الاولى
وفي الزقاق حيث كنا نلهو ونلعب اذ كنا جيواناً ، وكانت
كسلة من النوع النادر بين الطلاب ، اذ انه اصبح مضرب المثل ،
وموضع ذخيرتنا ، فكنا نلقبه (بحمار الصف) ...

ثم اخبرته والده من المدرسة بعد ان تبين انه يصلح لكل
شيء الا ان يكون تلميذاً ناجحاً ..

فقد ركب ثلاث مرات في فحصى الشهادة الابتدائية ! ..
واستقى بعدئذ من حياتي ، ومن الزقاق ايضاً عدة اعوام ،
علمت خلالها انه اصبح جزائراً ...

وزرته عدة مرات في ملعبته فكنا نتجاذب اطراف
الحديث ونعيد ذكريات المدرسة ، ونحدث عن الزقاق ،
احاديث طريقة ذات شجون وشؤون ...

ثم حدث انقلاب في حياته وفي احاديثه ، فلم يعد كما كانت
عندي به ، بل اصبح ينظر الى الحياة والكون من خلال منظور
اسود قائم ، الشيء الذي سبب بيننا نوعاً من القنور والقنور ...
ولم اعد لمجالسته طوال عام تقريباً رغم تبادلنا التحيه بمرارة
كلما التقينا ! ..

والتقينا انا وبسام بعد ذلك العام عدة مرات ...
هو في التظاهرات التي تقيمها منظمته بمناسبة وغير مناسبة ،
وانا متفرج ساخر ...

نعم ، وبين تصفيق وهتافات ورافقه (الاشاموس) كان بسام
يلفظ خطابه الناري مستعرضاً حالة البلاد وما آلت اليه من بؤس

وقفر وانحطاط... ثم عرج في خطابه على مأساة فلسطين وراح
يصب حمم اللعنات والتهم على الدول الغربية الفاشية ، وكيف
سلخت فلسطين قلب العروبة النابض عن بلادنا ، لتهبها لقمعة
سائغة للصهاينة الخونة المارقين...!

لقد جبن بسام أن يشتم روسيا وتناسى أن يذكر موقفها
التخزي تجاه القضية الفلسطينية العربية...!

وانتقل بعدئذ في خطابه الى الاحلاف العسكرية ، فراح
يحمل المسؤولين في البلاد وزر هذا التراخي مع الغرب...!

ولم ينس في خطابه ان يجيب الاتحاد السوفياتي الذي يعمل
(لفكرة انسانية) هدفها (إسعاد) البشرية المعذبة...!
ولموسكو (نصيرة) الفقراء والمحرومين...!

وانهى خطابه بان راح يقطع الوعود للمتظاهرين بحياة ارغد،
ومستقبل اسعد... وعيش ارفه في ظل الاتحاد السوفياتي
(صديق الشعوب)...!

ثم هبط من المنصة بين هتافات رفاقه ، وكله زهو
وخلاء... كأنه قائد مغوار عاد من ساحة الوغى وقد سجل
نصراً خالداً لأمته وسحق جيش العدو ومزقه ارباً ارباً...
بقيت في مكاني وانا احس باعماق قلبي بجذوة من الغضب
والثورة على هؤلاء الاطفال الصغار الذين لا يرون ابعد من
انوفهم . وغاظني ان ارى الى اي درك آل بعض الجبهة من ابناء
شعبنا العربي بحيث اصبحوا آلة صماء بكاء تاماً كحجارة الشطرنج
بين ايدي منظمتهم الاستعمارية التي تحررهم وفقاً لما رباها وغاياتها..

وكيف تدفعهم الاماليب المسكوفية المضللة التي تعد
الاحزاب الشيوعية في العالم انما كانت وحيثا وجدت ، في اقاصي
الارض ومدانها ، وفي مجاهل المعبورة ، بالنعيم والسعادة ، بينما
يرتع افراد شعبها ضمن الاتحاد السوفياتي في جحيم من الحرمان
ومظف العيش ، وحياة بوليسية دكتاتورية رهبة !..

ومشى موكب الصعاليك ، فرحت بدوري من باب التسلية
اقتني اثره ...

وفجأة التقت نظراتي بنظرات بسام ... فتبسم لي وافلت
من بين حلقة رفاقه المتظاهرين وانفك عن صفوفهم مقترباً مني
محتالاً بشيئة كالتاوس وهو لا يزال يملؤ بنشوة الانتصار ، وبعد
ان اقرأت السلام من عليائه وتضافنا بجماعة ، يادرنى متسانلاً
بلهجة لا تخلو من الغرور والعنجية :

بأي شعور نحس يا صديقي وانت ترى بأن عينك هذا الوعي
الشعبي الذي لا مثيل له ؟ .. لا شك ان خطابي قد اطربك وهز
مشاعرك ؟ ...

اجبته : انص بشعور غريب لا يحسه احدكم !..

قال فرحاً وقد زاده قولي زهواً وخيلاً :

الدرجة تبدلت افكارك فاصبحت تؤمن (بالتضال
الشعبي) فيبلغ فيك السرور مبلغه ؟!

اجبته بهدوء : كلا ، انما شعوري شعور الم ... شعور رافة
بأمتنا العربية التي تعلق عليك وعلى امثالك من الحونة آمالاً
كبارة ... في حين اصبحتم اتم كحجارة الشطرنج بين انامل

منظمتكم الاستعمارية ...

فقاطعتني بحدة وعصبية وكله يهتز غضبا : هذه الدرجة بلغت بك الوقاحة مبلغاً لتجرؤ على وصفا بالخيانة .. ونحن نعمل ليل نهار لقضية وطنية شعبية ...

فاجبته بهدوء وترو : كلا يا صاحبي لست وقحاً ، انما هذا هو الواقع المخزي ، واعجب كيف ارى شباباً يدعون الوطنية والاخلاص لامتهم ويعملون باجاء من دولة غريبة عنهم وعن ... وبثورة عنيفة بادرنى قبل ان انهي حديثي : اذن تعتقد ان منظمتنا هي منظمة استعمارية ؟!

قلت : اجل ان منظمتكم ان هي الا مدرسة للخيانة تخرج افواجا من (ابطال) التخريب والتهديم ، (وتلامذة اشاوس) في التهويل والتشويش .

واحتدم بيننا الجدل ، وكاد ان يحدث مشاجرة وارادت ان اوقف الحديث عند هذا الحد ، فاجذت منه موعداً على ان نلتقي في اليوم الثاني في منزلي في الثامنة مساء ...

فوافق على ذلك على شرط ان يجلب معه بعض رفاقه ...

قلت : اجلب من طاب لك من رفاقك ...

وكان اليوم الثاني ، فرحت اعد نفسي للساعة الحاسمة ، املني استطيع ان اعيد بسام ورفاقه الى محبة العقل والصواب ، وارفع عن اعينهم العاصب ، لاربيهم ضلالة الطريق الذي يسلكونه . فوضعت بعض المواضيع التي سأطرق لبحثها في الاجتماع ، ونشرت على الحائط رسماً مصوراً للعالم ...

ان نظرة واحدة على مصور العالم تؤكّد ان روسيا قد
استعبرت نصف العالم وجعلته داخل ستارها الحديدي ...

مساكين هؤلاء السذج من ابنساء شعبنا العربي فهم عملاء
طليعون من حيث لا يدرون مآرب وغايات اسياذ الكرملين
الذين لم يوروا غليلهم بعد من استعمار نصف المعمورة ، فما زالوا
يغذون الاحزاب الشيوعية في العالم بالمال والتعالم والعواطف
فتقع من افراد الحزب موقع الاجلال والتقدير لانها صادرة عن
عاصمة (باصعاليك العالم المتحدوا) .

وتتعامل عاصمة الصعاليك بهذه الاحزاب كالقطع النادر ،
تثيرها هنا وتذبحها هناك خدمة واحدة ، ومصالحة واحدة ،
وهدف واحد ، من اجل روسيا ! .. مستغلين جهل وفقر وحرمان
وسذاجة فئة معينة من الشعب الذي يروح تحت نوع معين من
الحالة الاقتصادية والاجتماعية ... فتعرك موسككو هذه الفئة
لاثارة القلاقل والشغب في البلاد فهدأ لضمها الى مستعمراتها المترامية
الاطراف ...

حقاً ان الشيوعية ان هي الا افيون الشعوب الكادحة ، وسراب
لامثال هؤلاء السذج الذين يعتقدون بأن ارتفاع مستواهم الحياتي
منوط بالانحداد السوفياتي وان حريتهم واستقلالهم سيكونان في
مناى عن الانهيار لو ان روسيا مدت لها يد المساعدة لتضمها الى
الدول الدائرة في فلكها والراوحة تحت نيرها .

ويز الوقت وتقبل الساعة الثامنة ، وتجاوز الساعة التاسعة ،
وبسّام لم يحضر بعد ! ..

مر اسبوع دون ان التقي ببسام او حتى يحضر للاعتذار...
فداخطني الشك لعل حادثاً وقع له ، فهرولت الى ملحقته ، وهناك
رأيتة سالماً معافى ، وكان منهمكاً في عمله ، فرحب بي واجلسني
على مقعد ، حتى انتهى من عمله ، فجاء اليّ وجالسي ، فبادرته
بالسؤال عن السبب الذي قعد به فلم يحضر في الموعد المضروب
هو ورفاقه ؟ ..

اجاب : ان المسؤول في الحزب نهاني عن الحضور ...
حتى وعن الاجتماع بك .

ولما استوضحته قال : لانك رجل هدام ...!

... هدام ...!

— أجل هدام ، وخائن وعميل للاستعمار ... ومن دعاة
الحرب واعداء السلم ...!

اجبت : ما اسخفكم واغباكم ، ان كل من لا يقف الى
جانبكم وينفذ تعليمات موسكو تعدونه خائناً وعميلاً للاستعمار ...!
وانتم وحدكم وطنيون احرار ...!

ان الدعاوة المسكوفية الضالة المضلّة التي تثير الطبقات
في المجتمع الواحد وتعدكم بالرغد والرفاه ، والعدل والمساواة ،
اخذت تظهر حقيقتها بوضوح وجلالة ، ليرى العالم ويسجل التاريخ
ان الاستبداد الفردي لم يكن في التاريخ يوماً ظالماً كما هو عليه
اليوم في روسيا ، وان استغلال الاقوياء الكبار للضعفاء الصغار
لم يكن في العصور الماضية اشد وادهى منه اليوم في الانحساد
السوفياتي .

واحتدم الجدل بيننا مرة اخرى ، بيد انني استطعت ان
أحضر بحجبي المدموغة وبراهيني العلمية التي لا تقبل الجدل ،
حججه التي يرددها كالبيغاء كما تلقى من رؤسائه ، والقائمة على
نظرة مادية مسبوقة ...

وبدا بسام رويداً رويداً يحول حدة هجومه وجداله الى
دفاع واهن ، وانتهى به الامر ، الى ان بدأ يأخذ ببعض اقوالي
ويسلم جدلاً يبراهيني واحاديثي ...

وشعرت انه يكاد يعلن انهزامه ، ولكنني لم ارغب في ان
أحطم شعوره هكذا دفعة واحدة ، وذلك مما يؤدي في نفسه واعمقه
الى رد فعل ، بل حاولت بحري الحديث الى جو آخر ... الى الماضي ..
وذكرائنا عن المدرسة ونوادينا عن الزقاق ...

وقبل ان افارقه استطعت ان اسئل منه وعداً ليأتي الى
منزلي لتحدث بصورة اعم واوضح ... وودعته تاركاً ملحمة ،
ومما ان خطوط عدة خطوات حتى خطر على بالي سؤال ،
وسرعان ما عدت اليه وكان في مقلتيه نظرات غريبة لم ألقها من
قبل !!

نظرات خال اهتدى ... وضائع وجد الطريق !.. وفائم
استفاق !..

قلت : بسام استجلفك بكل غال وعزيز لديك هل تصدقني
القول ان انا سألتك سؤالاً شغل تفكيري ؟ ...
فأقسم علي ان يجيب صادقاً ..

قلت : هل انت الذي صنع ذلك الخطاب الذي لفظته

بالنظاهرة ؟ !

فقيهه وهو يجيب : لست الوحيد الذي سألتني ، لقد كذبت
على الجميع وقلت أنا الذي صنعتها ولكن إن اكذب هذه المرة ..
وبعد برهة وجيزة من الصمت اجاب : انت ادري للناس
لي وبثقافتي ...

— اذاً من الذي صنع لك ؟

— لقد جلبه لي ودربني عليه الرفيق فؤاد ، صديقنا القديم في

في الزقاق ...

وراح بسام بلح علي بقوله : — اذاً خطر علي بالك هذا
السؤال فجأة ؟ !

اما انا فلم اجب بشيء .. ، انما بقيت في مكاني كتمثال قد
من حجر لا اخير جواباً او انيس بينت شقة ...

ذلك لان صديقنا القديم فؤاد ما هو الا موظفاً في السفارة
الروسية !!

خَفْوَةٌ !...



لا لم اكن اراها ، بيد اني كنت اسمع نحيبها ونشيجها
يأتيانني من الغرفة المجاورة يصران آذاني ، ويقضان مضجعي ..
فهي ما زالت تبكي منذ ثلاثة ايام ..

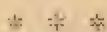
اجل المحدث ، ولكن لا ، لم اكن لاحلم انني سأصل
بالمحدثي ذات يوم إلى هذا الدرك !..

لقد انقضى كل شيء ، ووقعت المفاجعة ، وهذا هو اليوم
الثالث وانا سجين غرفتي لا اخرج على الخروج خشية من نظراتها
الحزينة المرسومة في اعماقها بجلاء ووضوح كلمات الاتهام ..

نعم ثلاثة ايام وانا وهن غرفتي حزین باك ، ولم يكن حزني
اقل من حزنها ، فقد كنت ابكي بحرقه والم تكفيراً عما اقترفته
يدي من اثم !..

كنت اريد ان اهرب من هذا الجحيم ولكنني لم اكن
لاستطيع ، لانه كان علي ان امر في طريقي على غرفتها ، حيث
تطالعتي بلامحها الكثيبة وعينها الباكيتين .

لذا جئبت أن أقف وجهاً لوجه حيالها ، وفي نظراتها الاتهام
الصارخ ... فبقيت في غرفتي رهن الحبسين ...
لقد انتهى كل شيء ، إذ لم يعد ثمة أمل لأن أصلح وابني ما
قدمته ، فإن أنا اليوم منه بالأمس ؟



... كانت حياتنا الزوجية جد سعيدة ، إذ كنا نؤنح في
مجموعة من العيش الرغيد ، والحياة الرافقة باحاطتيها ومذاقها .
وكانت وحيدتنا عند قلا أرجاء عشنا الزوجي باغاريدها المبهجة
وهي تلغ وتلك الكلام ، دون أن تحسن نطقه .

كما كنت موضع ثقة تجار السوق ، استطيع أن استدين
حوائجي من شئ أنواع القماش فكان دائني يهبوني ما أريد دونما
تلكؤ أو خوف ، لأنهم امنوا معاملتي وانسوا إلى حسن استقامتي ،
لأنني كنت احاسبهم في نهاية كل اسبوع دون تأخر أو تقاعس .
وكان متجري الصغير يتقدم بخطوات حثيثة ، ويتسع يوماً بعد
يوم ، فيقبل عليه الزبائن زرافات ووحداً .

وعندما مرضت زوجتي ، مكثت بقرب سريره اسبوعاً
كاملاً لا يعرف النوم سبيلاً إلى حذقي حتى تعافت ، فعدت إلى
مزاولة أعمالي وقد آل ذلك إلى مضاعفة حينها .

كنت قد درجت على عادة ، فما أن أغلق متجري حتى
أهرع تَوّاً إلى المنزل بشوق فائض لأقضي اسعد ساعات العمر في
جو عائلي سدها الحنان الخياش ، ولحمة العطف والحب المتبادل
وهناك في زوايا البيت كنت اللاعب وحيدتي عند ، فنقضي معاً

اوقات طويلة تتناغى ، ونضيع في نشوة ما بعدها نشوة .
كانت حياتي العائلية حتى ذلك الوقت جد سعيدة لا يعكر
صفوها شيء ، حتى حدث ذلك الحادث الذي قلب حياتنا رأساً
على عقب .

* * *

كان الوقت مساء عندما اقتحم متجري اربعة شباب في يد
احدهم ورقة طويلة تدلت حتى لامست ركبتيه .
قال حامل الورقة : الا تريد ان توقع باسميد ، على نداء
انصار السلم ؟

فاجبته : ما الفائدة من التوقيع عليها ؟ ..
فبادرني رفيقه : لنسلم من عاقبة الحرب واهوالها (قنعافظ)
على بيوتنا من التهديم وعلى اطفالنا من الجوع والشرير والموت
الزؤام ...

.. الا توقع ؟ ..
وترا كضت امام عيني كقصف الرعد صورة عن احوال
الحرب ..

... لا لم اكن قد هيّطت هذه الغبراء بعد عندما وقعت
الحرب العالمية الكبرى وان كان المرحوم والذي يقص علي جانبا
من احوالها وكيف كان ملاك الموت يسير جنباً الى جنب مع الشعب ،
آلاف الاطفال يموتون جوعاً وليس من يرحم ، ومن بينهم
اخواي الكييران اللذان ما ادر كتبهما ، فقد اصابهما كل اصاب
الكثيرين مرض موبؤ فقتلى في سني الحرب ، وراح يفتك بالجماعات

الآمنف فكاً ذريعاً... وكيف لحقت بهما والدتهما ، زوج والدي
السابقة ..

وقفزت كوميض البرق صور عن الحرب فبالو وقعت ،
وكيف سلبكي ابنتي هند وهي جائعة ولا املك شيئاً اسد به
وعقها وادفع عنها غائلة الجوع وقد هدمت القنابل منزلاً الصغير ،
واقت على متجري ، وشردتنا نحن الثلاثة ، وها هو الموت ييسم
فوق ربوعنا باجنحة أين منها اجنحة الغربان الناعبة السوداء ونحن
مشردون بلا مأوى ولا طعام...
- الا توقع يا سيد ؟!

- اجل... وكيف لا... ولي طفلة اعبدتها ، وزوج احبها
بكل جوارحي ، ولا اريد ان تفنك الحرب بهما .
- اذن وقع...

قالها احد الشباب وكان يعقد في عنقه ربطة حمراء - ويدعى
حامد كما عرفت بعدئذ - مفترآ ثغره عن ابتسامة غريبة لم ادرك
لها معنى .

ووقعت...!

وحامد صاحب الربطة الحمراء يتبسم... وانا جذل فرح ،
اظن انني قد دفعت بذلك احوال الحرب عن اسرتي ، وانني
انقذت هنداً من الموت المحتم...!

وكان اليوم الثاني ، وانا منهمك في عملي ابيع الزبائن
واحاسبهم ، فاذا بي القمي نظرة على باب المتجر ، فارى حامد
صاحب الربطة الحمراء واقفاً هناك ، وفي يده صحيفة ، ما لبث ان

اقتراب مني والابتسامة الغريبة ذاتها ما تزال على شفثيه ، وقد تم
لي الصحيفة وهو يقول :

انها جريدة (حررة تدافع عن السلم ، وتنطق بأصوات الملايين
خمد من يحملون الدمار للبلاد) ...!

وعندما اردت ان انقلدها ثمنها ، ضحك وفتنع وهو يقول :
انها هدية ، واملئ ان تقرأها .

* * *

مالك الليلة لا تسكلم ...؟ لقد استحوذت هذه الصحيفة
كزرة اخرى على ناحية تفكيرك ...!

واذاحت زوجتي الجريدة التي كانت بين يدي فنفرت منها
وانا ابادرها القول : دعيني بحق السماء فان فيها ما ملك علي جماع
لي ...!

فحدجتنى بنظرة عاتية زوراء وقالت : لك اسبوع تقرأ في
هذه الجرائد التي تحملها معك في كل مساء بحيث اصبحت تشغلك
كل ليلة عني وعن ابنتنا هند ...!

اما انا فكنت اقرأ دون ان اعيرها اذناً صاغية ، او اداعب
هنداً شأن عادي من قبل ...!

فقد كان (حامد) يحمل اليّ يومياً صحيفة ، ولا يأخذ شيئاً .
ثم راح مع الايام يختلف الى متجري فيجالسني ويحدثني ،
ويوضح لي بعض النقاط الغامضة ، مفسراً (المؤامرات) التي تحاك
ضدنا ويستفيض في نيات (الخطر) المتخفي الذي يهدد بلادنا .
فكنت اصغي اليه بكل قلبي ...!

ومع الأيام بدأ حامد ، يحمل الي كتباً ومجلات ، ثم بدأ يعرفني على نفر من أصدقائه من (انصار السلم) ، وكان يقدمني اليهم مسبقاً على اسمي القابلاً لم اكن احلم ان اسمع مثلها في حياتي . وبعد ايام ، دعيت لحضور اجتماع (لانصار السلم) فلم امانع ، وشيئاً فشيئاً بت ادرك اموراً لا قبل لي بها ، وتفتحت عيني على مجالات جديدة ...

اما حياتي العائلية فقد تبدلت ، وطراً عليها الفتور اذ اصبحت اهتم (باخبار السلم) اكثر من اهتمامي بامرني وعلمي !.. وتبع ذلك الاجتماع اجتماعات اخرى تعرفت خلالها على الكثيرين من افراد هذه المنظمة (الانسانية) الذين كانوا يبدون لي من الحب والتقدير ما كان يفتح له فؤادي ونطيب له نفسي . ومع الايام تحول حيي لهذه المنظمة الى هوس وجنون ، فبت اهل اعمال متجري ، وواجباتي المنزلية !..

وحيال اندفاعي هذا وقع الاختيار علي للسفر برفقة وفد الى برلين لحضور مؤتمر عالمي (لانصار السلم واتحاد الشبيبة العالمية ..) وفي برلين رأيت ما بهرتني وجعلني اؤمن بهذه المنظمة العالمية اباناً راسخاً لا يتزعزع . وعندما عدت الى بلادي اسرعت الى حامد ، وطلبت اليه ان يسجلني عضواً في هذه المنظمة !..

ونزلت بدوري الى الشارع اجمع التواقيع من المواطنين ، وانا فخور بما اقوم به من عمل (انساني) مؤمناً بأننا اصبحتنا النصر على قاب قوسين او ادنى ، وقريباً سيتحقق النصر لمنظمتنا فنحتل عندئذ احسن المراكز ، ولن تبقى بنا حاجة للمال .

وسرعان ما عهد اليّ مسؤولية في هذه المنظمة فترأست
احدى حلّاتها ، وكان عليّ ان اختلط بالاعضاء ، وان احدثهم عن
السلم ومضار الحرب ومشاهداتي في برلين ، مهما لاسرتي ومتجري ! .
ثم لم افأ ان طلبت الى زوجي ان تصبح عضوة في المنظمة ،
فزلت عند رغبتى ...

ولاول مرة في حياتي القيت خطاباً ساعدي في اعداده
حامد ، بعنوان : « موسكو دعامة السلم العالمي » ! .

وشيثاً فشيثاً بدأ الزبائن ينفروا عن مخزني ، اذ اخذوا
يشاهدوني ومن حولي افراد منظمتي ، فكنت لا انتبه الى البيع
والشراء ، والى كسب ودهم لبيسروا في الاقبال على متجري
بقدر الاستماع الى احاديث رفاقي ...

وامسيت لا اعود الى المنزل الا في ساعة متأخرة من الليل
بعد ان تكون زوجتي وابنتي قد اوتا الى فراشهما ، وهما
منهوكتان من السهر بانتظاري .

و ذات يوم سأنتني زوجتي في الصباح عن سبب تأخري
المستمر ، فثرت في وجهها حائفاً وطلبت اليها عدم التدخل في
شؤوني الخاصة ...

كنت اتبرع لمؤسستي ، ولاعضائها الفقراء ، ما وجدت الى
ذلك سبيلاً ... معللاً النفس بدنو موعد النصر ...

وبدأت احرالي المادية تسوء ، وفقدت ثقة التجار ... بيد
ان ذلك لم يكن ليهمني ما دمت قد كسبت ثقة منظمتي ! .
ومرضت زوجتي فلم يكن لدي الوقت للسهر الى جانبها ،

فاكثرت لها ممرضة راحت تسهر على صحتها ...
وفي الآونة الاخيرة ما عدت افتتح متجري الا في ساعات
قليل ..

واخيراً اصبحت ابنتي هند تمرض عضال ، وكانت وهي في
اشد ساعات مرضها تطلبني فلا تجد لي ظلاً ، لانني كنت مشغولاً
عنها بعقد الاجتماعات والقاء الخطب ..

وذات فجر عدت لالفي زوجتي باكية ناحبة ، وعندما
استوضحته الامر ، علمت بان ابنتي هند تعاني سكرات الموت ،
واذا بزواجتي تركع على قدمي باكية ناحبة توجعني ان افيق من
غفوتي واعود الى سواء السبيل ، نابذاً هذه الطريق الوعرة .
ورغم ذلك لم اصغر اليها .

وفي اليوم الثاني كنت في احد الاجتماعات ، حين جاءني
من يحمل الي الخبر الرهيب ، فعلمت ، وبأهول ما علمت : بان
هند ، وحيدتي هند قد فارقت الحياة !!!
وكانت صدمة قوية على اعصابي ، صدمة افاقني من كبوتي ..

* * *

وها انذا في اليوم الثالث بعد ان واريثا الترى جسد هند
في غرفتي لا اود الخروج ، ثلاثة ايام دون ان يحضر خلالها احد
من منظمتي تعزيتي !... حتى حامد .. حامد ذاته لم يحضر !..
لقد تحملوا عني جميعاً عندما علموا انني قد لامست الحضيض بعد ان
تركوني هيكلاً ... لقد دفعت الثمن ... وكانت جده غال ،
وشعرت لأول مرة انني التحدت الى هوة سحيقة الغور

لا قرار لها ، ومن حضيضي رحمت انظر الى حيث كنت احلق
ذات يوم : لقد انتهى كل شيء ! .. قدفتها شفتاي بيأس ...

لا ، لم اكن لارجو ان ابلغ بالحداري ذات يوم هذا
الدرك ... فقد احسست لأول مرة ان اقدامي قد لامست القواب ...
وآن الآوان لالقي عن كاهلي ذلك العبء الذي رزحت تحته ردحاً من
الزمن ... وحان الوقت لاسنيقظ من كسوة غفوتي واثوب الى
رشي ، وانقض عني تلك الاوشاب ، لانعتق من ربة عبودية
الاغلال ، واصعد ثانية الى حيث كنت ...

فقد داخلني شعور ان ما مرني لم يكن الاغوة طيش ، وهفوة
دفعت ثمنها غالياً ... وغالياً جداً : وحيدتي هند ! ..
ومستقبلي ! ..

حقاً عندما يشمر المرء ان اعقاب قدميه قد لامست الحضيض ،
يحاول الصعود ... ولكن قلما يكتب لفقرته هذه التوفيق ...
التهديم ، والاحذار ... هينان . اما البناء والصعود ...
فبجد صعبين ...

فهل بدوري واستطاعتي ان اصعد وابني ما هدمته ؟ ..
اجل علي ان احاول ... قلتها باصرار وعزيمة ...
وبعد ساعة خرجت من عزلتي ، وعندما مررت بغرفة
زوجتي طالعتني بوجهها الباكي وسألني والفصات تقطع نبرات
صوتها : الى اين تروم الذهاب ؟ ...
فوقفت في مكاني صامتاً لا احير جواباً . فاكلمت وهي
تنسج وتلتجب : ام انك لم تتعلم بعد ؟ ... وتروم ان نسم ما

فانتك ؟ ...

وبكلمات كلها ثورة وعزيمة : ثورة على الماضي ، وعزيمة لما
اروم الاقدام عليه بالمسئول قلت : سأخلص من كل شيء ... !
فأجابني بأكية ملتاعة : تخلص .. بعد ان أنتهي كل
شيء ؟ ..

فاجبتها وكلي ثقة بما اقول : كلا لم يفته شيء ، فمن اليوم
سأبدأ ومن هنا سأنطلق ...

* * *

وفعلا استطعت ان ابدأ من جديد ، وان استعيد رويداً
ورويداً مكاني السابقة في السوق ، وكنت قد استطعت ان
أخلص من منطقتي الهدامة ، فقد اقبل الى منجري حامد ككرة
اخرى ، بابتسامته الغريبة ، وربطة عنقه الجراء ليعهد الي مهمة
حزبية جديدة كما كان يصنع في السابق ...

لقد ادركت لأول مرة معنى تلك الابتسامة الصفراء التي
بقي معناها غامضاً علي طوال تلك الحقبة من الزمن ... فقد
كانت ابتسامة شيطان مريد ، فطرده من منجري شر طردة !
فاذا به يبادرني قائلاً : لقد أصبحت عميلاً للاستعمار ومن
انصار الحرب ! ...

فقلت له هازئاً : لا ، ولكنني كنت ضالاً ، فوجدت
نفسي ... وناشئاً ، فصعرت من غفوتي ...

للدفنوت !..

صورة تحليلية



لا ، لا ، انك لا تعترف بالواقع ... او لعلك لا تدرك الحقيقة ... او ان الحيلة قد انطلت عليك ايضاً ؟ ... فاصبحت عرضة لان تحرقك الدوامة الحمراء الى اغوارها السحيقة ، وتضيفك الى ضحاياها الكثير ؟ ...

لا يا صديقي انك لا تدرك بعد اهداف هذه المبادىء المستوردة ، فمن مهر بريقتها بصره لا يستطيع ان يغوص الى اعماق مآربها وغاياتها الاستعمارية .

وبعد فانت ، حدث لا تعي الاساليب الخبيثة التي يتبعونها فيقتلون سموها القتالة في النفوس البريئة من ابناء شعبنا الطيب بحيث يسون جسداً بلا روح ، ويتحولون مع الايام الى دمي ، بعد ان تحدرهم بسمومها ...

انما كالأفيون ، وشيء اخطر من الأفيون للسذج من ابناء شعبنا الفاقد الثقة بنفسه وبامكانيات امته العربية ... فتتجرفون في الدوامة لتصبحوا طلاباً في مدرسة الحياة دون ان تدركوا

او تغروا ...

قلت : ان اسيا د الكرميلين (يدفعون) غدا ربقة الاستعمار
(ويرفعون) هذه المبادئ من شأن الفرد ! ! ...

كلا يا صديقي فقد اكدت الحوادث والاحداث ان
الاستعمار السوفياتي لاشد واطغر انواع الاستعمار او الاستعباد
قسوة ووحشية في العالم منذ فجر التاريخ حتى اليوم ، فاعليك عن
انه لا قيمة للقوميات والاديان والامم واللغات ، ومكانة للفرد
والعامل في فلك اسيا د الكرميلين الحر ، وعالم الاتحاد السوفياتي ...
وقد داخلك انت ذاتك انها مبادئ بناءة ... لا يا اخي
انها مبادئ هدامة : ان المبادئ البناءة يا صاحبي تبني النفوس ،
اما المبادئ الهدامة فتهدمها ...

خذ مثلاً : باسم خربوط ، ماذا صنعت له هذه العقيدة ؟ ..
اولم تهدمه ؟ .. اولم يفقد ابنته ويفلق متجره ؟ .. وتهبط
اسهمه في السوق فلا يأقنه احد على شيء ؟ ! ...

وخذ مثلاً آخر : فاتح الهندي ، صديقنا ... اجل صديق
الطفولة فاتح ... من منالم يكن يحسده على مركزه ومكانته
الاجتماعية التي كان يتبوأها حتى انضوى تحت لواء هذه المنظمة
الحزبية ، اجل ، انت تعلم كيف انهار واصبح مهزلة لكل عاقل
من صحبه ، وهو اليوم طريد العدالة ، ولا يعلم الا الله اين هو ،
بعد ان فقد كل شيء ! ! ...

ثم سلمان الفران ... سلمان عبد الجبار ... الا تعرفه ؟ ...
اواه ... ظننتك تعرفه ! !

فهل هناك أحد في حي (باب الشيخ) يجهل القرآن سلمان
 عبد الجبار ؟! فهو فيلسوف الحي الساهر ، فالتكنة الطلوة كنت
 دائماً وأبداً تجدها على لسانه تسيل من فيه ببداهة سريعة وخفة
 ظل ، فيضحك سامعيه حتى على أنفسهم ، وكان لا يمر بشيء إلا
 ويجد فيه موضوعاً للتفكه والتندر ، وإن لم يكن مظهره يبدل
 على روجه الكثيرة المرح والسخرية ، فهو قصير القامة نحيل الجسم ،
 سريع الحركة ، لا يعير باله هندامه ، امير الوجه ، ضامر الخدين ،
 ذو عيتين سوداوين ينبعث منهما بريق غريب . ولو ان والذي
 سلمان كانا ميسوري الحال ، فيرسلانه الى المدرسة ، لكان اليوم
 في مصاف الفلاسفة الساخرين ، او الصحفيين ذوي الاسلوب
 اللاذع ، ولكن ما حياته وقد نشأ في بيئة يكتنفها الفقر والجهل
 والمرض ، وما ان شب على الطوق حتى احس انه ضائع في قرية
 (التهامية) ، فهجرها الى العاصمة حيث تمكن من الظفر بعمل في
 احد افرانها وكان ذلك منذ اعوام تتجاوز الربع قرن استطاع
 خلالها ان يتزوج وان ينشي أسرة مثالية ، وكان يقوم بعمله
 اليومي بجد وحيوية ونشاط لا يجد ان ، واستطاع من وراء
 جهاده المستمر ان يصبح صاحب قرن في (حي الرصافة) ...
 وكثيراً ما كان يحاول ان يختلف الى داره بروقة الجيران
 فتقضي لديه سهرات لذيذة تستمتع خلالها الى نواذره الفكهة ،
 وتستغرق جميعاً في عاصفة غاتية من الضحك الصاخب ... او
 ندعوه لجالستنا اذا اتفق ومر أمام داري او دار احد الجيران ،
 ونحن جلوس نسامر بعد او بتنا من اعمالنا ، ويكون بدوره

عائداً من عمله فيجلس ، وسرعان ما نفسح له مجال الحديث .
فيتحدث ويضي الوقت دون ان نحس كيف مر او انقضى ...
وكنّا في كل ليلة نسهر لدى احد الجيران ، ويصوّف
لؤلؤ الحديث وفاكهة السهرة سميرنا سلمان فيروي لنا الاقاصيص
وتفنن نصغي اليه بشوق ولذة واعجاب ، وتحتاجنا بين الفينة والاخرى
موجبات من الضحك ...

ثم لا يفتأ ان يطالبه احدنا ان يقص علينا ذكرياته عن
قرية النعمانية وكيف هجرها الى غير رجعة ، ورغم ان كل واحد
منا قد استمع الى قصة حياة سلمان عشرات المرات فقد كان بنا
شوق دائم للاسماع الى هذه الحكاية الطريفة المرة تلو المرة ، ففي
كل كرة كان يكتشف سلمان ناحية لا تارة فبهاتنا .

فيقص علينا كيف تضارب يوماً ووالده امام جمع من
وجهاء القرية ، فضربه والده حتى اغشى عليه ، لانه سخر من
مختار القرية بين شردمة من رفاقه ... فنزح الى العاصمة ، وكبد
وجاهد وسهر الليالي المضنية ، دون ان يعرف التقاعس والخور
الى نفسه سبيلاً ، وجمع الدرهم الى جانب الدرهم ، بحيث استطاع
ان يبتاع بعد جهد وكد شاقين طوال اعوام ، القرن الذي كان
فيه صانعاً ...

فيستريح سلمان قصة حياته ، وحوادثها واحداثها واستحاضها
بحيث نستلقي على ظهورنا مقهقهين ، ولا ينقص عقد سهرتنا الا
عندما تعلن الديكة انتصاف الليل ، فيهرع كل منا الى فراشه
جذال فرح وينام والابتسامة عالقة على شفتيه ...

على هذه الصورة قضى فيلسوف حينئذ الساعو سامان شطر حياته ، مجاهداً ، في فرته مكافحاً في الحياة ، يحاول قدر استطاعته ان يوفر لاولاده الثلاثة حياة كريمة عزيزة ، وكلما ظهرت في طريقه عثرة كأداء لتعكر صفوة حياته ، عاجلها بحكمة ودراية والابتناسامة لا تفارق شقيقه ، وان استوقفه شخص يأله عن حاله ، فقد كان يجيب والبشر والسرور يطفحان من وجهه : احمد الله على هباته وخيراته ... الدنيا بالفت خير ...

هكذا قضى حياته راضياً عن عيشه شاكر أهوله على ما يدره عليه من رزق وخيرات .

ومع الفجر كنت اراه يهرع الى مسجد الحي ليقوم بواجباته الدينية ، ومن ثم يذهب الى عمله ، فكنت ارى فيه مثلاً حياً للمواطن الصالح الذي يعمل عملاً منتجاً ، وينشيء اسرة اجتماعية صحيحة ...

وفجأة شعر جميع من في الحي ان انقلاباً غريباً قد وجد طريقه الى نفس واخلاق وتصرفات سامان ... فلم يعد يتخلف مع الفجر الى المسجد ... واحسنا نحن جيرانه الذين كنا نقضي السهرات تلو السهرات معا ... بفتور احاديثه ، وتغيير مواضعها اذاخذ مجدداً عن اشياء غريبة غير تلك التي كانت لولب سهراتنا العذاب في السابق !!!

وتعدنا ذات امسية ان يزوره جميعاً ... لتستوضح عن سر هذا التبدل الغريب ، فقلب حياته ، وغير نظراته للاشياء وانتزع تلك الابتناسامة المريحة من على شقيقه ، فانبرى يحدثنا عن شيء

يدعيه بأنه (مبادئ انسانية ببناء) تحمل (الخير في ركبها
للشجر جمعاء) !!.

وكانت احاديثه محسوسة بالنقمة والثورة على الوضع الاجتماعي
في البلاد ...!

فهو لم يعد يرضى بهذه الحياة التي يحياها ، انما بات يشد
حياة اخرى ، وراح يسهب في وصف هذه الحياة الاخرى ،
(والعدالة والحربة والمساواة) التي (ستحققها) هذه المبادئ .
(فترفع) من مستوى الفرد الى (ذروات) لا يحلم بها ...
وانهى حديثه مستبشراً يؤكد بيزوغ هذا (الفجر الجديد)
الذي سيعم (نوره) العالم ...! ويضم تحت لوائه جميع افراد
(المجتمعات) في المعمورة ، ما دامت روسيا تلك الدولة الجبارة
تغذيه بالروح والمادة (وتساعد وتساند) الشعوب التي تريد ان
تطبق هذه المبادئ في بلادها ، فتعدها بالسلاح والمال والجنود
والتعليمات ثم لا تفتأ - للمحافظة عليها - ان تضمها الى
الدول الدائرة في فلكها !!.

وطالبنا في آخر (محاضراته القيمة) وحشاً على الانضمام الى
(موكب منظمتهم الصاعد) الذي اصبح منذ امد قريب عضواً
عاملاً فيها ، والتي ما وجدت الى (لرفع) مستوى الطبقة الكادحة
العيشي ، فتوزع (العدل) بين افراد المجتمع بحيث لا يبقى ظالم
او مظلوم ...! واذا لم ننضم اليها فتحن احد امرين :
اما اغنياء سدج ، او عملاء للاستعمار !!.

فلم يرض او يوافق احدنا على فكرة الانضمام لمنظمتهم ...

انقسم عقد سهرتنا في تلك الليلة ونحن في اضطراب
مبين من امر حلقات ...

وقر الايام ويجاول خلالها سلمان الاتصال بكل فرد من
جيرانه على حدة في امل ان يستميله الى منظمته ، ولكن كانت
مضير محاولاته الفشل الذريع ...

وعندما وجد سليمتنا وعدم اقتناعنا بمثل هذه الاوهام ،
لم يعد يجالسنا او يطيب له ان نذهب اليه للسهر كعادتنا المحببة ،
وبات لا يحضر السهرات التي كنا ندعوه اليها ... فقد تغيرت
نظرتنا تماماً للحياة ، واصبحت احاديثه مقتضية جافة او محشوة
بالغضا والنقمة على من يسميهم (الطبقة الارستقراطية) . وتلك
الحجة التي كان يكتفي بها في اعماقه لكل فرد من الجيران تحولت الى
فتور وبرود تظهر ان بجلاء ووضوح من احاديثه ونظراته
وتهربه من تأدية التحية ، التي ان اضطر لتأديتها ، فقد كان يؤذيها
للمعاملة فقط ، فكان انه امس يرى بنا اناس اقل منه مكانة
وتفكيراً ...!

وكان ذلك آخر عهدنا بسلمان وجلساننا معه ، وان كنت
كثيراً ما اشاهده يمر بجانب نافذتي مسرع الخطى صاحب الوجه
نائه النظرات ، قلق الافكار ، وقد اختفت تلك الابتسامة المشعة
عن محياه ، تاركه مكانها عبسة قائمة غصوب ، فخيّل لمن يراه انه
يجمل على منكببه كل ما في الوجود من هواجس وهوم .

وقد كان لتصرفاته الشاذة هذه أن اخذ اصدقاءه وجيرانه
بالزقاق يبتعدون عنه الواحد تلو الآخر ، وينفرون من احاديثه ..

كما ان سلمان ذاته راح ينفرد عنا ليعيش مع جماعة مستقلة
تلاعبت بأفكاره ودست سمها في غروقه ، فامسى يعيش بهذه
الأفكار التي خدرته كالافيون .

وغير الأيام وتلبها الأشهر ، وتعقبها السنون . . .
وقد تسألني يا صديقي ماذا حققت له هذه المبادئ طوال
هذه الحقبة من الزمن ؟ . . .

كما أساءل بدوري ماذا حققت له ، أو هؤلاء السذج الضالين
من أبناء شعبنا الذين جرفتهم الدوامة الجراء ، فانضوا تحت
لوائها منذ أعوام طوال ؟ . . .

كلا يا أخي لم تحقق لأحد منهم أي شيء ، ولم ترفع من
مستواهم العيشي ، إنما زادتهم الجداراً وفقراً ونعاسة ، وضخت
هذه المبادئ الهدامة في أعماقهم جذوة الحقد والكراهية على الفئة
الناجحة في المجتمع وامعنت في تهديم نفوسهم وأخلاقهم ومكانتهم
الاجتماعية !! .

وهذا مثل حي ، سلمان ، انظر اليه بعد أعوام خمسة من
الجرافه في تيار هذه العقيدة الهدامة ، اتدري الى أي درك آلت
به الحال ؟ . . . لقد ابتعد زبائنه عنه الواحد تلو الآخر بعد ان
فقدت شفتاه تلك الكلمات المرحه ، وتلك البسمة الصافية ، التي
حل محلها شيء أشبه بالسقم الزعاف ينفضه في وجه زبائنه وجيرانه ، كما
وركبته الديون بحيث بات يشعر ان أسرته أمست عالة عليه ،
وانغمس في هذه البؤرة الفاسدة ، حتى اكتنف حياته التخاذل
والخور الكسول . . فاضطر لان يبيع فونه الذي جمع ثمنه بكد

وجهد السنون !..

اما اسرته البائسة ، فانها طفقت نبيت سواد لياليها على الطوى ، وقد تحول مع الايام كوخهم الهاديء الصغير الى جحيم مستعر الاوار لا يهدأ او يستكين والى سلسلة مستمرة من الخصام والنزاع ، ورغم ذلك فما زال يسلك تلك الدروب الوعرة دون ان يصحو من غفوته ، او يعود الى بحجة العقل والصواب ويثوب الى رشده ، الى ان فقد زوجته متأثرة بموضع عضال !.. وتشرد اولاده كل في بلد بعيداً عن اخيه ، وعن المنزل الذي تربى تحت سقفه : عبد الفتاح هاجر الى الكويت ، وشكري مجهول الاقامة ، اما راجية فانها تخدم في احدى البيوتات !..

اما هو فقد تشرد في الشوارع نهياً للفاقة والبؤس والشتاء ، وكان كالشعلة تنوص ايامه ويندوب جسمه تدريجياً ولم ير عليه وقت طويل حتى اصيب بداء الصدر ، فاخذ ينث رثته دماً ، ينذر بدنو الاجل ! وفي احدى النظاهرات القبي القبض عليه ، ولا يعلم الا الله في اي سجن هو الان ؟ وماذا حل به !..

* * *

اجل يا اخي هذه قصة سلمان عبد الجبار ورويتها لك دون زيادة او نقصان ، وهي قصة عشرات من امثاله من المواطنين السذج الذين جرفتهم تلك العقيدة ، بعد ان ادخلت في روعهم انها المنقذ ... وسترفع من شأنهم ومكانتهم ... فاذا بها تريدكم التحذاراً وانزلاقاً ...

واكثر ما اخشاه يا صديقي ان تجرفك هذه المبادئ ذات

المظهر البراق التي ما هي الا ظل لسود الغيمسة الحمراء العالقة في
سمائنا مترقبة اللحظة الحاسمة لتنفجر وتنهم ناراً ودماراً ، زارعة
اني عبرت افانين الجرائم وضروب الكفر والزندقة الفكرية .
ويمرح في عتمة هذا الظل الاسود جماعة من المهوسين
والمأجورين والناقمين الذين جرفتهم الدوامة الحمراء لتجعلهم طلاباً
في مدرسة الحياة .

وثمة فئة اخرى جرفت بها الدوامة يا صديقي ، وهي فئة مخلصة
بين المواطنين جاءت تجرب هذه المبادئ املأ بان تجد لها مليحة
فخدرتها بافيونها وبهرتها بظهرها ، فتعلقت بهذا القطار المزركش
البراق المسرع نحو الهاوية !..

هذه هي يا اخي حسنات هذه العقيدة الهدامة التي جرفت
الكثيرين ، وتريد ان تضيفك الى ضحاياها .

سبق ان قلت لك : ان العقيدة البناء تبني نفوس اصحابها ،
اما العقيدة الهدامة فهي تهدم في النفوس كل القيم الاخلاقية
والمناقب الروحية ، وحسب الصراع نحو الافضل والاجمل
والاكمل ...

اراك ساكتاً لا تحير ... هل قلب كلامي افكارك رأساً
على عقب ؟ .. ألا تسلم الآن معي جدلاً بان الشيوعية ما هي الا
افيون الشعوب الكادحة ؟!..

جَدِّ ذَاتِ لَيْلَةٍ !..



لقد سمعت هذه القصة الطريفة ذات ليلة ساهرة في إحدى
البلدان الساحلية ، بيد أن محدثي رجائي إلا أذكر اسم البلدة ،
وطلب إلي أن أتلاعب بأسماء أبطالها ، فلما إذا رغبت بإخراجها
للنور ... ولذا أحقت رجاءه ...

* * *

ما إن حل سميتي الرفيقي (طلعت منيف) في بلدتهما
الساحلية الصغيرة برقة شقيقة الرفيقة (سعاد) ، حتى استأجرتا
لهما منزلاً في ضاحية البلدة ، ورحنا نتبرّع نحن بأثاثه ، بحيث
أصبح فيه بعض الفرش ، فقد كانت حالتهما المادية تظهر بوضوح
وجلاء من الثياب الرخيصة التي يرتديانها ، والطعام البسيط الذي
يتناولانه ، وكثيراً ما كانا يكتفيان في نهارهما بوجبة بسيطة من
النواشف ، الأمر الذي حزن في نفسي ونفس الرفاق كثيراً فرحنا
ندعوهما باستمرار كل يوم للغداء لدى أحدنا .

ومنذ أن وطأت أقدامهما بلدتنا ، بناءً على طلب المسؤولين

في العاصمة وتسلم طلعت رئاسة المنظمة فيها - نحولت المنظمة الى
ثورة ، ففي كل ليلة اجتمع سري جديد تعقده في احد المنازل
وفي كل جلسة كان الرفيق طلعت يلفظ خطاباً ويضرم فيها نار
الحماسة ويوقد في اعماقنا جذوة الثورة على وضعنا الاجتماعي الفاسد !
وفي كل مناسبة تظاهرة جديدة !... وفي كل اسبوع مواطنون
كثيرون يتقدمون بطلبات الانتساب لمنظمتنا !..

فكان والحالة هذه ان رحنا نتبرع بالمال ليعيشا عيشة
اقرب الى الرخاء ، لانهما كانا من الاندفاع بحيث لو تبرعنا
بارواحنا في سبيلهما ، لما ضارع هذا التبرع التضحيات التي قدمناها
في سبيل هذه العقيدة !..

ومع الايام استأنس الرفيق طلعت وشقيقته الرفيقة سعاد
بي ووجداني خالصتهما المنشودة ، فاصبحت صديقتيهما المفضل
وخادميهما المطيع ، بحيث راحا يأتمنانني أسرارهما فعرفت الكثير عن
خفاياهما ...

... في احدى الليالي ، اثر اويتنا من احد الاجتماعات ،
انبريا يقصان علي قصة نضالهما في سبيل المنظمة ، ويشكوان ما
لحقهما من غبن وسوء حال ، بسبب نضالهما ، رغم انهما لم يكونا كما
هما عليه الآن ، فقد ورثا ثروة طائلة عن المرحوم والدهما ،
واملاكاً كثيرة ، واراخي شاسعة ، بيد انه لكثرة زجهما في غياهب
السجون عشرات المرات اضمحلت تلك الثروة رويداً رويداً
وضاعت مع الايام تلك الاملاك ، ورغم كل ذلك ورغم العذاب
الذي لقياه في سنى العبود التي مرت على البلاد لم يعرف التقاعس

اليهما سبيلاً ، وما زالاً كما كنا ثورة انى حلاً يبشران الجميع
ببإدائها ونضالان نضالاً مستميتاً من أجل انتشارها .

ولا أذيع سرّاً اذا قلت انى بدوري كنت من الاعضاء
الخلص في المنظمة وقد سجت من اجلها اكثر من مرة ، بيد
انى تجاهد قصة نضالها وتضحياتها الكبرى المستمرة الفيت انه
لا يوجد قوة محال للمقارنة بين نضالي ونضالها وتضحيتي وتضحياتها .
ومع الايام ازدادت اواصر الصداقة والمحبة بيننا وبث
لا استطيع مفارقة لها لحظة واحدة الا في المهمات التي يكلفني شيمى
الرفيق طلعت القيام بها . .

فكل كلمة يتقوّ بها طلعت تقع منى موقع التقديس ، ولم
اكن الوحيد الذي امسيت كذلك انا جميع الرفاق اصبحوا
طوع بانه ودهن امره ، يحرق كذا كيفما اراد ، فقد كان من قوة
الشخصية وعذب الحديث وطلاوة اللسان بحيث رحنا نحاول جهداً
الاحتذاء به وبنضاله واندفاعه والنسج على منواله . . .

كانت شقيقته الرفيقة سعاد بدورها على جانب كبير من
دمانة اخلاق شقيقها ورفيق اسلوبه . . كما كانت ذات جمال اخاذة
غير انها لم تكن لتشبه شقيقها في شيء ، فهو اسمو البشرة قصير
القامة ذو عينين سوداوين ينبعث منها يريق غريب ينفض الى
الاعماق ، في حين كانت سعاد بيضاء المحييا ، شفاء الشعر ،
خضراء العينين ، ذات قد مياس سميري ، وابتهامة ندية .

وانر خطاب نارى لفظه الرفيق طلعت ، اقترعت على بعض
الرفاق بانه يتوجب علينا ان نقيم له مثلاً في مدخل البلدة او في

أحدى شوارعها الكبيرة أو ساحاتها الفسيحة تقديراً له وجهوده التي يبذلها في سبيل العقيدة، وبذا يكون أول قتال يقام للرجل حي .
فقابل اقتراحه رضي الجميع ، ووقع من طلعت موقفاً حسناً وسراً منه إنما سروره ، فقد كان بالحقيقة يستحق أكثر من قتال لأن بفضل جهوده تحولت المنظمة في بلدتنا إلى كتلة من النشاط وأصبحت تضم خيرة شباب البلدة .

وبت مع الأيام أهل عمل الذي كان السبيل الوحيد لعيشي ،
أذا انصب كل اهتمامي على العمل الحزبي ، فطردت عنه ولم أكن الوحيد الذي طرد أنا كثير من الرفاق طردوا من أعمالهم ، كما كدت أن أطرد من منزل أبي بعد أن أصبحت عالة عليهما ، لأنني لمسيت لا أحسن إثبات عمل يدر مورداً ولو ضئيلاً بسبب انضوائي تحت لواء هذه العقيدة ، ولطالما سبب لي ذلك خصومة ، واستمر أوار الجدال بيننا وكثيراً ما نشب بيني وبينهم نزاع محترم ، ورغم كل ذلك استمررت سائراً في الدرب الذي رسمته لنفسه ووجدته (المتخذ الوحيد) شعبي دون أن أعير لتوبيخ أهلي ونصيحهم أباي بعدم سلوك هذا الدرب أذنناً صاغية ، بل انطلقت أكثر في العمل لأبرهن المسؤولين طلعت بأنني عضو فعال منتج يحاول جهده نشر المبادئ بين المواطنين وادخال أعضاء جدد في المنظمة ...

كان سميتي الرفيق طلعت وشقيقته الرفيقة سعاد بدورهما لا يأتيان عملاً وإنما شأنهما شائي ، وشأن الكبيرين من الرفاق الذين حبوا همهم على العمل الحزبي ، بفارق بسيط : هو أنهما كانا يفتتان

من اتعابنا في حين كنا نقتات من اتعاب ذوينا...
ومع الأيام اصبحنا موضع تضر ذوينا ، واجتاز التضر
منا ومن منظمينا الى بقية الاهلين من ذوي العقول (الرجعية)
الذين لا يقدرّون (التضحية) في سبيل (مثل عليا) .

* * *

وذات يوم سافرت الرفيقة سعاد الى إحدى البلدان القريبة
لتقوم بالدعابة الحزبية ، في حين قرأ رأي الرفيق طلعت على
الخروج بظاهرة نعير فيها عن استكنا لبعض المشاريع الاستعمارية
التي تلوح لنا في الدول الغربية ...

وفعلا كانت ظاهرة لم نشهد لها بلدنا من قبل مثيلاً ، وكان
للخطاب الذي لفظه الرفيق طلعت صداد الكبير بين المتظاهرين
فالتفت له الاكف بصفيقاً ، وفيما هو يرتجل خطابه الناري داهمتنا
مفرزة من رجال الشرطة فولينا الادبار هارين ...

بيد أنهم القوا القبض على اغلبنا ايقودونا الى النظارة حيث
قضينا فيها عدة ايام خرجنا بعدها (كابطال فاتحين) ، شاحي الهامة
مرتفعي الرؤوس ننظر بازدياد للمواطنين الذين لا يجدون حذونا
بل يحبسون عن السير في دربنا ! ...

* * *

وفي إحدى الامسيات واثو التظاهرة باسبوع كنت جالساً
في حانوت احد المواطنين (الاشراف) اشرح له اهداف حزبنا
وغاياته الرامية (لخلق مجتمع جديد) بعيد عن مآرب الاستعمار
الغربي ، دون ان يكون لدولة اجنبية يد علينا ، واذا توزع

البريد يخبرني بأن لي في حوزة رسالة مسجلة فاستلمتها بعد اث
وقعت على دفتره ووضعتها في جيبى ، وعدت لأقم حديثي مع
المواطن ، وظال بنا الجدل ، وتشعب الحديث ...

وفي تلك الليلة عدت الى المنزل في ساعة متأخرة من الليل
وقد استولى علي الكرى .. وفيما انا اظفي ، النور وادس بنفسي
في الفراش واستعرض حوادث يومي ، قد كرت الرسالة ، فالتويت
في فراشي واشعلت النور واخذت الرسالة وفتحتها ورحت اتلوها .
بالله !.. فقد احسست كأنني اراء كهر بائياً قد سرى في جسمي ،
ولم تصدق عيناى ما قرأته ، فاعدت تلاوتها من جديد ، وحين
جنوني وشعرت بالارض نور تحت اقدامي وقد اجتاحتني موجة
من الثورة والغضب لا حد لها وانا مضغوط من امري لا اكاد افقه
لما اقرأه من معنى !... وغاب عني الوجود من هول المفاجأة ،
وعدت الى المفلف ، اواه ... لقد ارتكب موزع البريد خطأ
كبيرا !..

ان الرسالة ليست لي !.. انما اسمي (طلعت منيف) وليست
بإسمي (طلعت منير) وقد تضاعفت دهشتي اذ وجدت في الرسالة
حوالة مالية !.. اجل حوالة !.. واذا بالدموع تنهمر من مقلي
كأسيل دون انتطاع وانا احس بآلامي واحلامي العذاب في منظمتي
دفعه واحدة تتحطم ، ورحت اتلوها بصوت عال صدورني كالعويل :
حضرة الرفيق طلعت منيف المحترم

تحية وبعد ، نرجو ان تكون والرفيقة سعادتيام الصحة ، كما نأمل
ان تكون الحركة في منطقك قد انتقلت من حسن الى احسن ،

وجل أملنا ان تبقى قصتك منطلية على الجميع بانك فخير معدم
لا تملك شروى نقيز، وان اخبارك لم تنسرب اليهم بعد بانك ملاك
كبير، او انك تقبض منا راتباً كبقية المسؤولين في المناطق .
فان اقتضع امرك فبادر فوراً باخبارنا حتى يصار تخويلك
الى منطقة اخرى نائية .

طية شيكاً ببلغ (٢٠٠) دينار، منها ستون راتبك الشهري،
واربعون راتب الرفقة سعاد، اما المبلغ الباقي فهو قيمة التظاهرة
التي هيأتها وكانت حسب تقريرك جدد ناجحة .
هذا وقد بعثنا برسائلك الى (الجهات العليا المختصة) وذيلناها
بتوصية، ونرجو ان نحصل على نتيجة حسنة في القريب العاجل
فيزداد راتبك .

(الجهات العليا المختصة) تشكوفلة تقاربك، فنامل الاكثار منها .
ختاماً بفضل والرفقة سعاد بقبول واقر التحيات
سكوتير الحزب

وكانت الرسالة مذيلة بتوقيعه وختم الحزب !!!
بالحقيقة لست ادري كم مرة تلوت الرسالة وانا اكاد اتيز
غيطاً ووددت لو كان النذل طلعت امامي لاحطم رأسه بقبضتي
ولأمزقه باسفاني ارباً ارباً، يا المجرم، انه يتاجر بنا وبزيادة
عدونا وبتظاهراتنا للجهات العليا المختصة!، للاجني!، للاستعمار!
يا لنا من جهالة مغفلين فقد ظنناه رجلاً مثالياً يعمل لصالح
وطنه وورفع مستوى الحياتي، فاذا به جاسوساً حقيراً! .

هذا الذي اقترحت ان تنصب له تمثالاً عند مدخل بلدنا اعترافاً (بخدماته الانسانية) (وقضياته المشمرة) ؟! . فاذا هو عميل قذر للاستعمار الاحمر واذا نحن طلاب في مدرسة الحيانة والعوية بين يدي الاستعمار بجر كتنا وفقاً لرغباته ومآربه !..

لم ادر ماذا اصنع ، والافكار تتصارع وتتزاحم في رأسي وتصخب ، وبقيت اذرع غرقتي جيئة وذهوباً حتى قر رأيت اخيراً على فكرة : لماذا لا اذهب اليه في هذه الليلة ذاتها واناقشه الحساب ، ولن اخرج الا بعد ان احشم رأسه ؟! .. وبسرعة احكمت اغلاق الملف بعد ان ضمنته الرسالة والشيك ورحت ارتدي ثيابي ..

سأهيه الرسالة ليتلوها وانظر الى تقاطيع وجهه ، وسأسأله حقيقة الامر ، وسأصّب عليه جام غضبي ، وسأكون منذ هذه الليلة حرباً شعواء ضد هذه المنظمة الاستعمارية الخارجة عن ارادة امتنا العربية !..

نظرت الى ساعتى بعد ان انجبت كل شيء فالفيتها تشير الى الواحدة بعد منتصف الليل ، ورغم ذلك خرجت من غرقتى كالسهم ميسماً شطرن منزله ...

وما ان قاربت مشارفه حتى نباطأت في سيري حتى حاذيته ، ووقفت في مكاني احذق به .

لقد كان ينبعث منه نور احمر خافت ، وبخطرات حذرة اقتربت اكثر من المنزل فتناهى الى سمعي صوت خافت ، فرحت ارفع السمع فقد كان صوت انثى وآهات عميقة ، وهسهات

ومصصة شفاه تنبعت من الداخل !!
باللذل ... لقد اغتتم فرصة غياب شقيقته سعاد ليقتلي بأحدى
عشيقاته !..

وثارت ثائرتي ، وانفجر مرجل غضبي ، وبقوة جبارة
رحت الباب بقدمي فتعطمت مزلاجه وانفتح على مصراعيه
وقفزت الى الداخل ، واذا بي اقف في مكاني كتمثال قد من حجر
لا انيس بينت شقة ، احدى جامداً الى الجهة التي ينبعث منها
الصوت . وانا احس ان الدماء قد تجددت في عروقي ...
فيا لهول ما رايت !!

سعاد في احضان طلعت !!!

.
.
.

ولم ادر ماذا صنعت ، وكلم من الوقت مر علي وانا فيما انسا
عليه من الدهول ...

* * *

وزاد محدثي قائلاً بعد برهة حيت ران على ارجاء المكان :
في تلك الليلة استيقظ اهالي البلدة الساحلية الصغيرة على
صراخ كأنه دوي الرعد ، فتروك الاهلون فرشهم وخرجوا الى
الشارع بناماتهم يستطلعون جلية الامر ، وتوجهت انظارهم الى

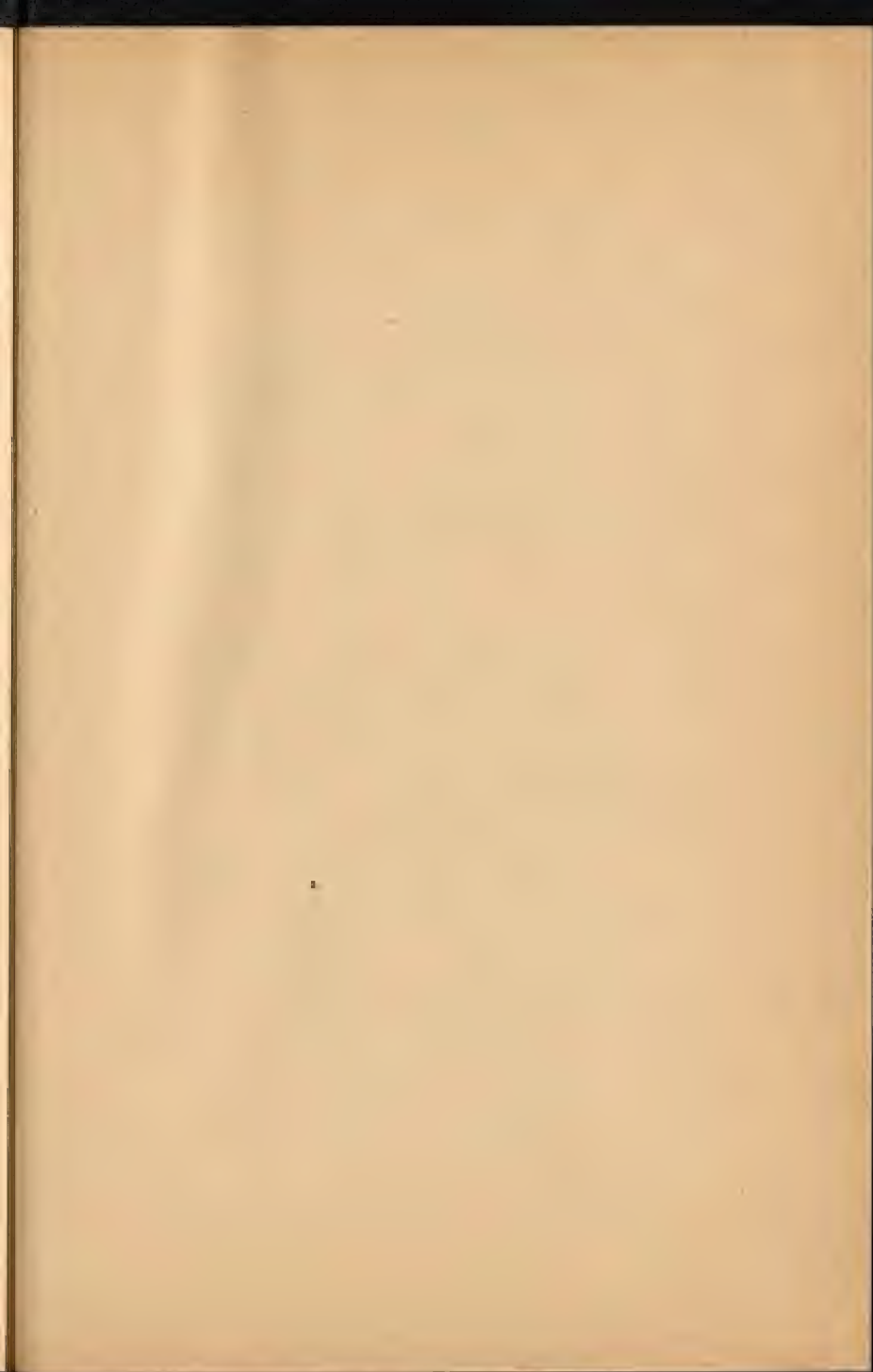
مصدر الصوت فقد كان ينبعث من منزل طلعت منيف ،
وتحس الكثيرون من افراد المنظمة ، وذهب بهم الظن الى ان
هناك من يحاول الاعتماد على منزل رئيسهم فانطلق الجميع
يركضون مع الاهلين شطرا .

ولما ادر كره استغربوا عندما افوا طلعت منيف وقد
انتصب في باب المنزل وهو لا زال يصيح باعلى صوته ويبيده رسالة
وشيك يلوح بها ، ويشير باليد الثانية الى الداخل ، فدخل التوم
الى المنزل غير انهم تسمروا في امكنتهم ، وقف شعر رؤوسهم ،
حين اصطدم بصرهم بنظر تفشع له الابدان ... فارتدوا الى
الخارج مصعوقين .

وفي تلك الليلة ذاتها طرد (طلعت منيف) وسعاد من
البلدة شر طردة بعد ان نالا من الشعب العاصب الشاثر جزاءهما .
شيء واحد ادر كه طلعت منيف في تلك الليلة ان سعاد
لم تكن شقيقة طلعت منيف انما كانت عشيقته !!!

عادت الامور في بلدنا بعد تلك الليلة الى مجراها
الطبيعي ، وسابق هدوءها المهدود ، فلا تظاهرات
ولا شعب ولا قلاقل ، كل منهمك بمتاعه ، يعمل عملا منتجا ،
حتى طلعت منيف ذاتها استطاع الحصول على عمله السابق ...
وكانت هذه الحكاية تروى لكل من يقصد البلدة ،
ويتندر بها السكان في السهرات وليالي السمر واصبح ذلك آخر
العهد بتلك المنظمة الاستعمارية وزيائيتها الذين تبعهم ليكونوا اداة
تهديم بين افراد المجتمع ...

لِعَظْمَائِهِ



لا ، لست ادري كيف حدث كل ذلك ! ... لا اعلم
كيف اقدمت عليه !.. فقد كنت في حالة غير طبيعية !..
لقد رأيت ان اشياء كثيرة تكاد ان تهلك : استقلالنا الوطني ...
سيادة امتنا ... مقدراتنا القومية .. والقيم الراسخة في كيان شعبنا ..
لذا قتلته !..

اجل قتلته !.. وحسبي اني انقذت المجتمع والبلاد من عضو
هدام لا يعرف مصلحة بلاده ، انما هو والآلاف من امثاله من
ابناء شعبنا العربي امسوا العوبة طليعة في يده الاستعمار يلهو بهم
كما يحاوله ويحركهم متى شاء طبقاً لمآربه وغاياته !..

لا تسليني كيف حدث ذلك !.. انبكيين؟! اجل انني لادرك
فداحة المصائب ... ورغم ذلك فهو لا يستحق قطرة دموع طاهرة
من مآقيلك ...



كان (عبد الرؤوف) يشعر في قرارة نفسه ان السماء نائمة

عليه ، وإن القدر الإلهي غير راض عنه ... فهو ذاته حاول مراراً
أن يفقه كنه تلك الأقدار التي كانت منذ زواجه الباكر تتسلط
على حياته فتسيرها كيفما شاءت ، بحيث استحدثت إلى جميع مستعر
الأوار ... وسدى حاول أن يفسر أسرار هذه التكتيات التي
توالى على أيامه ... فكأنها أنجبت له زوجة (بدوية) مولوداً
جديداً تنقض به المنون فتنتشله من قبضة قبل أن تعود قدماء
الطريتان على السير ، وقبل أن يبلغ لسانه بكلمة حنون على
مسمعها ، ظالماً اشتبه أن يسمعها ولو مرة واحدة من قلعة كبده:
بابا ... بابا ...

ولم يجد عبد الرؤوف المنكود الخط سيئاً فذه التكتيات
المنوالية ، فهو لا يذكر أنه ظلم مخلوقاً ، أو أكل ديناً على أحد ،
أو اختل بفرائض الكتاب الكريم الذي كان يقرأ من سورة قبل
بزوغ الفجر ، وعند دلوغ المساء ، آيات بينات كانت يحسها على
شفتيه تنداح كأنها قطرات حافية من المعين الإلهي الذي لا ينضب .
لقد أقترن ببدرية وله من العمر ثمانية عشر حولاً ، في حين
كانت هي في ربيعها الخامس عشر ريانة فائقة بمشوقة القوام مفسرة
الشعر ابداً عن ابتسامة ندية .

وتنفخي عوازل الشهور ، وتضع له زوجه وتيدها البكر ،
بيد أن ما يكاد يصيب الوليد من العمر أشهر ستة ، حتى
تختطفه يد المنون ! ...

وفجر السنون ، وأصبح لعبد الرؤوف نبياً وثلاثين حولاً ،
وقد أودع الثرى خمسة من فلات كبده وهم في مهدهم قبل أن

ينفضج الثور في أعينهم .

ورغم ذلك فقد كان دائماً راخي النفس ، بحمد الله على كل ما ينال مؤمناً أنه صادر عن ارادته السامية .

وما برحت نظرتة الى بديره كلما كانت عليه منذ ان عقد له عليها ، نظرة حب وتوجع لانها لم تكن تنعم هي ايضاً بطفل ينزعها من وحشتها الدائمة ، وحياتها الرنيبة الحزينة .

كانت هذه الافكار ، وهذه الصور السريعة تراوده وتعيد الى بصيرته تلك الحقبة من حياته الزوجية فتعكس امام عينيه حوادثاً وأحداثاً يربها كأنها شريط سينمائي تغمره الدكنة القاتمة !..

« وارتفع في تلك الاثناء صوت المؤذن يدعو المؤمنين الى صلاة الفجر ، فراح عبد الرؤوف يبسل ويحمدل وهو يتوضأ ، ثم ركع امام الله مصلياً مستغفراً تائباً منيباً ، وشعور خفي يداخله ان السماء تستجيب الى صلواته الحارة وتفرجه من كربته ...

وكان السماء التي لا ترضى بالطلب على احد قد استجابت لدعائه وصلواته الحارة الطويلة فجمدت زوجه جنيماً سادساً ... ومع الفجر كان عبد الرؤوف ينهض باكراً ويصلي بخشوع وتقوى طالباً من الله ان يجعل هذا الجنين الذي يستقر في احشاء زوجه طفلاً ، ويبقيه ذكراً ، فلا يفجعه به شأن اخوته الخمسة . ونذر على نفسه ان يهب الفقراء ويبت الله كل ما جمعه من مال ، حصيلة سنوات مضنية من الخدمة في سلك الجيش .

وكانت زوجه قد استيقظت بدورها لتصلي الفجر فبادرت
بتحية الصباح ، فما كان منه الا ان التفت بنظراته ، وبطريقة عفوية
- على وسطها حيث يستقر امله الباسم ...

وتمر الايام ... وتعبها الشهور ... وفي حفل من المهرج
والمرج وضعت زوجه وليدها السادس ... فاذا الدنيا من حوله
عريس ..

ففتح صندوق ماله يعرف منه موزعاً على الفقراء والمعوزين ،
وعلى رجال الله الصالحين . واقبلت القابلة ، ووضعت طفله بسين
يديه طالبة ان يقترح له اسماً ... ففكر طويلاً ... واخيراً
استقر رأيه على ان يسمى ابنه غازياً .

وكان يحيى ، غازي فاتحة خير عليه فاذا به يتال رتبة ملازم
في الجيش ...

* * *

نشأ غازي وتوخر في كنف والديه الخنوعين اللذين اسبغا
عليه من الحب والعطف الوائلاً . وها هو يكبر ، ويصبح صبيّاً
يلعب مع اترابه في الزقاق في حي الكرخ ، او يهرع يوفقهم -
تخفية - الى نهر دجلة ، يسبحون في الماء ، ويتبردون من حر
الهجير .

مثب غازي في بيئة كل من فيها يحيطه بضروب العز والدلال ،
فكل ما يشتهي طوع امره ، وكل ما ينسى يدركه ، فلا يرد
له امر ، ولا يجيب له سؤال .

وبرسلة والده الى المدرسة ، موصياً المعلمين ان يحقوه
بشئى ونجوه العناية والرعاية ...

ولم يشرف غازي على الثامنة عشر من عمره حتى اخذ
والده يتنبه ان تغيرات كثيرة طرأت على نفس وتصرفات
واخلاق ولده ، فطفت خطاه تدرج في سبل غير تلك التي نشأ
عليها والده عبدالرؤوف الذي كان يزداد قدره في نظر رؤسائه ،
متمين على سلوكه الوطني ، ونشاطه المستمر ، وسهره الدائم على
مصالح امته ، فينال الرتبة اثر الرتبة ... فاذا به مقدماً في الجلس
يزدهي بأهين حقة ..

بينما راح غازي يجاري بعض اترابه في مآلكهم الوعرة
اللامرضية ، فلا يقوم بفروضه الدينية ، ولا يصفي لنصح والده ،
بل انخرط مع رفاقه الطلاب مشاركاً ايام التظاهرات التي كانوا
يقومون بها ، تدفعهم اليها ايدى مجهولة غريبة عن امتهن لمساوب
وغايات استعمارية بحتة !..

وذات يوم رآه والده في تظاهرة فاحس بآماله الكبار
تتحطم دفعة واحدة بولده ، وفي ذلك المساء عند ما عاد وحيد
غازي الى المنزل نشب بينهما جدال طويل ، وادرك الوالد عبد
الرؤوف لأول مرة مقدار ما جناه على وحيد بتلك التربية
والدلال ، بحيث لم يعد بقدره الآث ان يعيده الى الطريق
القومى . اذ ذهبت كل محاولة برده عن غيئه ادراج الرياح ، فما زال ابنه

يسلك الدروب التي اختارها لنفسه .
وكانت خدمة صغرة عند ما ناداه رئيسه في الجيش سائلاً
ايام غما اذا كان هذا الطالب محصه !..
وابرز لائحة كبيرة كتب في سطورها الاولية اسم :
« غازي عبد الرؤوف » !..

قاوماً برأيه ان نعم ، وزاد بشأنه وحيدة !.. فتبدلت
نظرات الرئيس ، وثم وهو يقول :
انه من اكبر عناصر الشعب في مدرسته ، وهو من كبار
مخضبي الطلاب للقيام بتظاهرات !..

وفي ذلك المساء شاهد المنزل معركة كلامية حامية
الوطيس ، احس خلالها عبد الرؤوف ان زمام السيطرة على
وحيدة لم يعد طوع يدية ، بل طوع ارادة اجنبية تأمر فيطيع !.

* * *

وفي التظاهرات الكبيرة كان غازي يسير في المقدمة هاتفاً
مطالباً (بحريات الاسم) معيشاً الاتحاد السوفياتي (نصير)
الشعوب (المظلومة) .

واثر احدى التظاهرات ، وبعد ان لاذ المتظاهرون بالفرار
دعاه رئيسه كره اخرى وانبرى يعنفه طالباً اليه ان يجد من
نشاط ولده واندفاعه الهدام لحساب الاجنبي الطامع في استعمار
البلاد واستئثار مرافقها الحيوية ...

ومرة اخرى كان نصيب عبد الرؤوف الحنية والحسران ،
فلم يجد بداً من طرد وحيدته من المنزل الابوي ، كما كان قد طرد قبلاً
من الكلية وبدأت الحكومة ملاحقته ...

كان غازي في بعض المرات يتسلل خلسة الى المنزل ، عند
ما يكون والده غائباً عنه ... وكانت والدته تبكي وهي تنصحه
ان يعود عن غيئه وضلاله .. بيد ان دموعها لم تكن لتجدي
نفعاً ... فلما زال غازي يندفع في دروبه الضالة المضلة فيشير الشعب
اينما حل ، واصبح من العناصر الهدامة في البلاد ...

وكما ذكر اسم غازي واعماله الخزية على مسمع والده طأطأ
رأسه خجلاً وحياءً ، وهو يشعر انه اضحى وصحة عار في جبينه .

وتقوم ذات يوم تظاهرة كبيرة في حي الكرخ ، فتمر على
الجسر العتيق ، ثم تنتهي الى شوارع الرشيد تنادي بالسلم بحية
الاتحاد السوفياتي واسياد الكرملين ، ويخرج المقدم عبد الرؤوف
على رأس كتيبة من الجيش ليقمع التظاهرة وقد جاءته الاوامر
بان يقمعها بآلية صورة كانت ، حتى ولو بالنار والحديد .

وكان غازي كعادته على رأس المتظاهرين . ويقف المقدم
عبد الرؤوف موقفاً خرجياً ، اذ ينشب صراع عنيف في اعماقه ،
صراع بين حبه لولده ، وواجبه تجاه بلاده ، فاذا بحبه لوحيدته ، ورغم
نقمته عليه يقتصر في اعماقه ، فيتخاذل ويحين عن مسه بسوء ...!

لم تفلح قوى الجيش في قمع التظاهرة ، ما دام على رأسها

غازي الذي كان يبذل فواه الاندفاع بها بدلاً للكو أو خور ،
فتمسك التظاهرة من قطع شارع الرشيد الى شارع الامين ..!

* * *

وقف المقدم عبد الرؤوف مطاطي ، الرأس يسع ثأنيب
رئيسه ، فقد تقاعس عن تأدية واجبه تجاه بلاده ، غير انه لم يجد
بداً من ان يقسم بشرفه العسكري بتسليم ولده غازي حياً أو ميتاً ..!
ولكن ابن له ان يبرّ بقسمه ، وغازي متوار عن الانظار ؟ ..
بيد ان اخبار ولده العاق كانت تنسرب اليه فيسمع انه عقد
اجتماعاً في حي الكرخ ، او القى خطاباً في حي الرصافة ...
وكان ان استقر رأي الوالد على امر خطير غسلاً للعار
الذي لحقه ابنه بأسرته وسمعته .

وكانت تظاهرة كبرى ..! ويتقدم المقدم عبد الرؤوف
يطلب الى رؤسائه ان يطلقوا يده في قمعها بعنف فكان له ما اراد ..
وكان غازي على رأس المتظاهرين في هذه المرة ايضاً .
وها هو المقدم عبد الرؤوف وجهاً لوجه جبال
وحيدة غازي ..!

* * *

لا ... لا تسليني كيف حدث ذلك ..! لانني لا استطيع ان
اجيبك ..! لا استطيع ان اقص عليك التفاصيل ..! فقد كنت في حالة
لا يمكنني وصفها ..!

كنت بين نارين!.. نار الواجب المقدس، ونار الحب الجامع!..
ونشب في اعماقي صراع، صراع عنيف بين الحب والواجب،
وكانوا مقبلين، وثورة الصراع ما زالت محتدمة الاوار في اعماقي..
وكما هو شأنه وعادته كان يقودهم، وهذا انذا وجهها لوجهه
قبالة!.. وفي لحظات حدث كل شيء!..

سقط على الارض جثة هامدة يتخبط بدمائه!.. ولاد
رفاقه بالهرب مطلقين سيقانهم للريح!..

جبناء... رعابيد... لقد روعهم مشهد الدم يتفجر
من جسده... جسد وحيد الذي به كانوا يحتمون!.. وعندما
سقط قفلوا هاربين... لا يلزون على شيء..

لا، لا، لم اكن ارغب ان يحدث كل ذلك، فلطالما نهيته
عن سلوك ذلك الطريق الوعر..

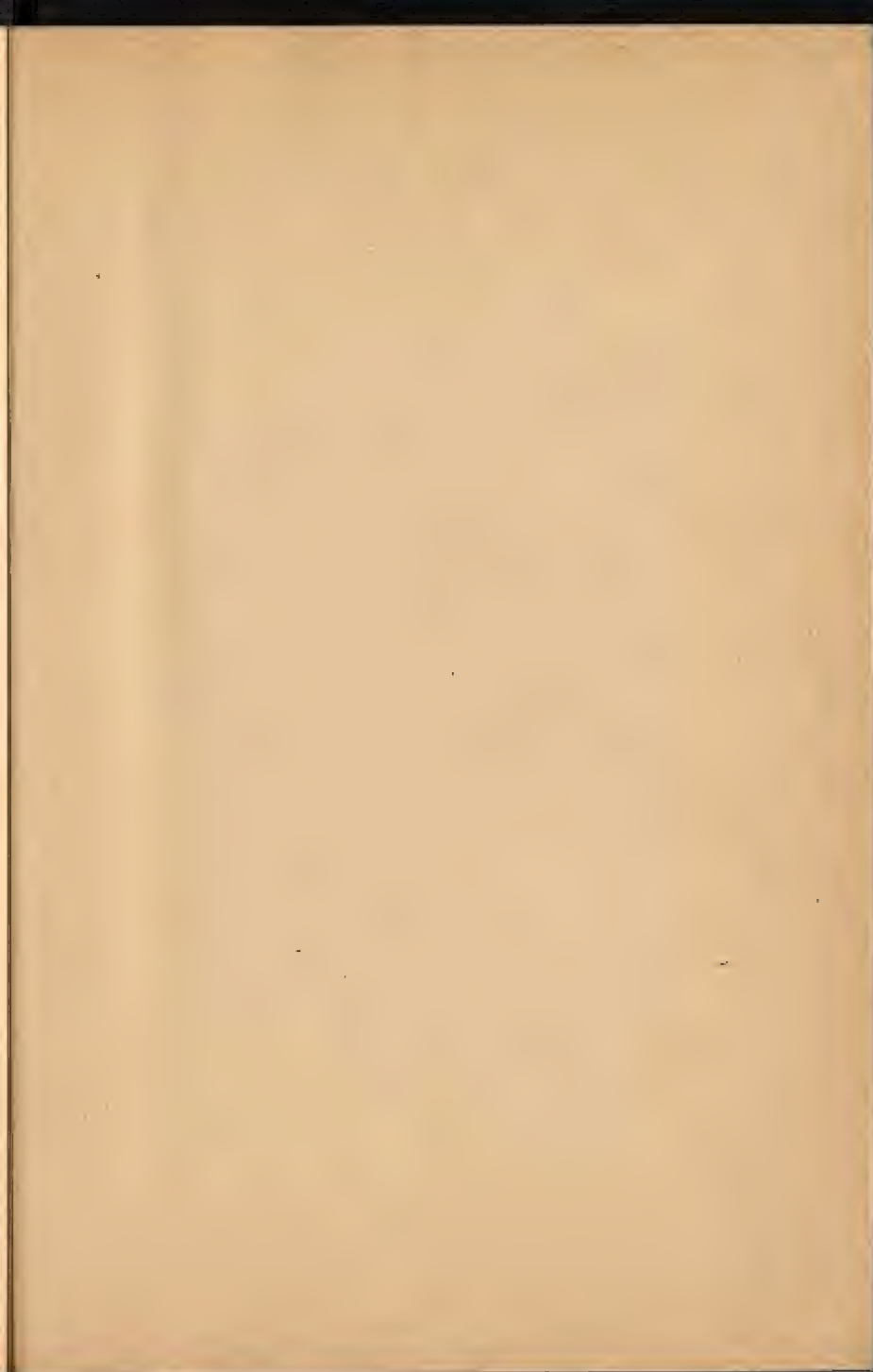
كفى، كفى بكاء... فانت نفسك يا بدوية كنت ناقمة
عليه في الآونة الاخيرة، واطالما شكوت لي تصرفه الشاذ...
انك تقطعين نياط قلبي بنشيجك ونحيبك... كفكاك بحق السماء
بكاء... فان اعصابي لم تعد تتحمل...

لقد خطوت فوق جسده المضرج بالدماء لافجع التظاهرة،
وقعلاً تكتنت..

وعند ما عدت الى القيادة امثلت بين يدي
رئيسي الذي كان قد بلغه اخباري، فاذا به لأول مرة منذ

عامين اثنين بهش في وجهي متنسماً ويرت على كتفي وهو يقول :
انني لادرك مقدار تضحياتك في سبيل واجبك ... فالأمة
التي فيها رجال من امثالك لن يكون قبرها التاريخ ...

المواطن الجديد



كان يروق لي كثيراً ان اجلس في متجر صديقي فريد ناصر
استمع اليه تارة وهو يقص علي اقاصيه الطريفة التي تختلط فيها
العبرة بالسخرية ، والدموع بالضحكات ، وتارة اخرى اراقبه
وهو يساوم زبائنه علي قطعة من القماش بلباقة ، فكانت الساعات
تمر علي وانا في جلستي تلك دون ان احس كيف انقضى الوقت ...
كانت زيارتي للمتجر تأتي كلما احسست انقباضاً في نفسي
او شوقاً للاسراع اليه ، فهو يحدث لبق يروغهم مسنعه علي الاصغاء
اليه بكلية ..

وفي ذات زيارة ، انهرى فريد يقص علي بعض نوادره
وقد خلا المتجر من الزبائن ...
بيد ان صمتاً مياشاً ران فيأه علينا حين اصطدمت انظاره بشخص
يعبر الشارع ، فلفت صمته المباشرة انتباهي الى الشخص ذاك .
... كان فتى رت للسياب زوي الهياة تنطق تعابير وجهه بالماشي
العاصفة والفواجع العائيه التي اجتاحتها . في العقد الثالث من عمره ،

بيد ان من يبصره لاول وهلة يخاله في خريف حياته ، واذا بفريد يشير اليه وهو يقول : هل تعرف هذا الشخص ؟ ..

فهرزت رأسي نقياً .

فاردف يقول : انه صديق الطفولة (كامل يونس) مسكين لقد هدم نفسه ! ..

فقاطعت قائلاً : علّ له قصة طريفة في جعبتك سترويح الي الآن ؟

أجابني ضاحكاً : يا لك من ساحر عظيم وكاشف للغيب فهذا كبد ما اريد الاثيان عليه .

صمت برهة ، فخميم السكون غلنسيا وراح فريد يسترجع اشياء ذهنة الضائع المتلبذ ، وينبش ذكرياته المبعثرة ، ثم استوى في جلسته وهو يقول : انما لقصة طريفة ومؤثرة هذه التي سأرويها لك الآن ...

وعاد الى صمته وما هي الا عنيهة حتى ثم يقول : لا اذيع بياناً باصاحبي او افشي سراً خطيراً حين اقول ان كامل يونس كان اذكى مني بمراحل في جل اطوار حياته الدراسية ، فهو صورة محسنة للذكاء ، ومثال يحتذى في النشاط . وكان ابدأ ودائماً يفوز بالدرجة الاولى بين جميع اقرانه الطلاب ..

وقد افترقنا بعدئذ ، انا تركت المدرسة بعد حصولي على الشهادة الابتدائية وانخرطت في صميم معركة الحياة بعد ان فقدت اسرتي الصغيرة معيها موت والدي ! ..

اما هو فقد استمر يعقب من مشهل العلم لينتقل من ثانوية الى كلية الى الجامعة لينتهي به المطاف الى السوريين بباريس . وقد كان دائماً في جل اطوار حياته الدراسية يفوز بقصب

النسب على الجميع ! ..

ورغم ذلك ، ورغم الشهادات التي حصل عليها ، فمأخذي ، على طريقي نفيس ، هو بحوب الشوارع بلا عمل ولا أمل ، في حين انا حامل الشهادة الابتدائية ، أصبحت أم لك متجراً ولي مكانتي وكلتي في سوق التجارة والمجتمع ، ولا يداخلك بأنني حصلت على ثروتي هذه عن طريق غير مشروعة ؟ .. كلا .. انما هي جهنم وثمار نتاج سنوات مضنية عصبية قضيتها في العمل المتواصل والكمد والجهد ، وسمعتني الفرق بيني وبينه فاقول :

انني رجل عملي اؤمن بأنه بقدر ما اعمل وانتج سأربح ، وهو رجل خيالي يهلل النفس ويستظر حدوث معجزة تؤمن له الحياة التي يريد لها ليثري بين ليلة وضحاها ، وهذه المعجزة التي يحلم بها هو وامثاله المعجزة من ابناء شعبنا العربي البائس سيحققها - حسب زعمه - نظام مستورد من الخارج وغريب عن بلادنا فيطبق هذا النظام على مجتمعنا ليتساوى فقيرنا وغنينا ، ضعيفنا وقويونا ، عبقرينا وغينا ! ..

حقاً ان به وامثاله مساً من الخبل ، فهم يهدفون إلى توزيع القلة بالتساوي بين افراد المجتمع ، ولست ادري متى سيدرك هؤلاء الجهلة بأن الحياة ليست الا صراعاً وجهاداً ، صراع دائم يأبى والهدوء والاستكانة في سبيل طلب مجتمع افضل وحياة مثلى .

وكما تعلم يا صديقي بأنني نزلت الى ميدان العمل دون ان أوث عن والذي شيئاً الا فقره ، نزلت الى معترك الحياة وكلبي ايمان بأن

من جدّ وجد ومن سار على الدرب حتماً سيصل ، وانه لا بد من ان يكون لي ذات يوم شأن في المجتمع ومكان تحت الشمس ، وهذا الشأن ، وهذه المكانة ، لن يأتيا بصورة عفوية ، او قضاء وقدر ، او بالعمل لتطبيق فكرة غريبة بعيدة عن حقيقة امتنا العربية وواقعها ، اذا كل ذلك سيتحقق عن طريق الصراع والجهاد .

كنت آنذاك في ربيعي الخامس عشر و كنت لا املك الا النزر اليسير وهو ثمن مصاغ والدني ، فحملت البضائع ورحلت اطوف بها في الاحياء بائعاً متجولاً ساعياً وراء الرغيف الذي كنت احصل عليه بشق النفس مجبولاً بالعرق والالام والجهد ، وكثيراً ما كان الفشل يخرجني من وراء كل منعطف وسارع ، بيد انني لم انهمز بل رحلت اصارعه ، وقد درجت على عادة الا القوي نظرة الى الوراء لاحصي عدد الزلات التي فشلت بها وخسرت ، بل كنت امضي قدماً وقد زودني تجارني بعارف وحكم جديدة... لقد جعت واسرفي كثيراً ، ولكن بثنا على الطوى ، ورغم ذلك لم يعرف اليأس الى قلبي سبيلاً .. بل انطلقت لصراع اقوى وكفاح اشد ...

واخيراً ادر كني النجاح ، او قل انا ادر كنه ... ان النجاح اغتنام للفرص ، واذا بي القوي بين يدي ثروة صغيرة ورحلت اضاعفها بالعمل المستمر حتى تمكنت من استئجار متجر صغير . وفيما كنت انا اعمل في حانوتي الصغير من الفجر حتى دلوغ المساء بهمة ونشاط لا يحدان ، كان كامل قد انتهى به المطاف الى جامعة

السربون بباريس حيث راح يتخصص بالاقتصاد التجاري ، وفي
اثناء دراسته بالسربون وكثرة اختلاطه بالطلاب الاجانب ذوي
المشارب والميول والاهداف والعقائد المختلفة ، تشرب عقيدة من
سألتها لو انتشرت ان تقضي على المثالية في كل انسان ، فلفد كان
ذلك مبدءاً هداماً يهدم في كل من يعتنقه المعنويات الروحية ،
والقيم الاخلاقية ، وحب الصراع ، ويتركه عضواً اسفل في المجتمع
لا يحسن اتيان عمل منتج يفيد البلاد ويرفع من شأن صاحبه
الاجتماعي ، انما يحوله الى اداة تدمير توغر الصدور بالحقد والضعفة
والكرهية ضد المثة الناجحة في المجتمع وتخلق فيه روحاً طبقية
حقيرة .

وفي الوقت الذي كان فيه كامل يعب من منهل هذا المبدأ ،
كنت انا اقفز من نجاح الى نجاح ، ومع الايام تزايد عدد زبائني
واقبل الجمهور عليّ لصدق معاملتي ورخص اسعاري ، فاضطرت
للانتقال الى هذا المخزن الذي نحن فيه . . .
واخيراً عاد كامل الى البلاد يحمل بيمينه دبلوم في التجارة
والاقتصاد ويسراه مبدءاً هداماً .

كان كنهه من الخاس لا للوظيفة الحكومية المرموقة التي
تسبها ، انما للمبدأ الذي اعتنقه ، فقد راح يبشر به بين صحبه ،
وكانت اول عقبة كأداء صادفها حين استمر اوار الجدل بينه
وبين والده . . .

فكامل ينكر وجود الله متبعاً بذلك نظرية مبادئه المادية
التي تقول : الدين افئوس الشعوب . ووالده الرجل النقي الورع

راح يقارعه الحبيج بوجود الله بما لديه من آراء وحجج دينية ...
وعندما انتهى ان ولده كامل ماض في غيه وضلاله وان
جهوده لم تفلح بإعادته الى محجة العقل والصواب ويجعله كلامي
رجلاً نقياً ورعاً يؤمن بالله والانبياء ، طرده من المنزل طرد
النواة وابى ان يكون بين افراد أسرته المؤمنة المتدبنة فرداً
زنديقاً كافراً لا ينفك يشتم الانبياء ملصقاً بهم شتى التعوت القدرة
ويتمسك بنظرة مادية تسخر منهم .

واعقب طرده من المنزل الابوي اقاته من وظيفته لقيامه
بمحلات ودعوات بين الموظفين لنشر فكرته ، ثم سعى له بعض
الأصدقاء لدى تاجر وظلوا به يقتنعونه حتى وظفه لديه واولاه
مهمة الاشراف على حسابات شركته ، فكان ان اراد كامل ان
يحمل ذلك التاجر ذا العقل الراجح والهمة المتوثبة نفس افكاره ...
و كرة اخرى كان الطرد نصيبه !.. فكان والحالة هذه ان
راح كامل يقتات من الثمن الذي تدفعه القنصلية التي تروج لهذه
المبادئ كقيمة للتظاهرات التي يبرئها ويخطب فيها ، ويسجن
في الغالب من اجلها !..

ومنذ عام اخذ كامل يزور مخزني بامل ان يقتني فانزلني
الى دركه وحضيضه واصبح من اعضاء منظمته !.. بيد ان القشل
كان نصيب محاولاته ، وعندما وجد ان جهوده ذهبت ادراج
الرياح نعمتي بانني جاهل لا استطيع تفهم الفلسفة الماركسية (العبيقة
الغور) !.. وانني متكالب على ذاتي اهوى جمع المال وبناء مركز
مادي اجتماعي لنفسى مهملأ امر محتجعي !..

فأجبت بهدوء وترو : أوليس حرياً بك يا كامل وبكل
فرد ان يعمل كما اعمل ، فينشيء تجارة ناجحة ، او صناعة مزدهرة
او ينتج غلالاً وفيرة ، من ان يضع ايامه عباءة منثوراً ، اولا
تعلم ان نجاح الامة وازدهارها من نجاح الفرد وتقدمه ؟ ..

وكان ان انقطع عن زيارتي ، لا بل اذا لقيني نجماهلي ..
وتمر الايام على كامل وهو لا يزال متورداً في حمأة افكاره
الهدامة ، وكانت حالته المادية والصحية والنفسية تتحول من سيئ
الى اسوأ حتى امسى كما ابصرته وكأنه شيخ في العقد السادس
من عمره فقد حولته مبادئ الهدامة الى حطام ، وليته الوحيد
الذي سلك هذا الطريق الوعر ليصبح بوقاً صادحاً لهذه المبادئ
الاستعمارية؟! كلا .. انها هناك الكثير من السذج والجهلة من أبناء
شعبنا العربي الذين ضلوا سواء السبيل فانضوا تحت لواء هذه العقيدة
الخارجية عن ارادة امتهم العربية ، وقد داخلهم انهم بذلك يعملون
عملاً بطولياً وينهضون ببلادهم الى القمة ، ولا يدركون انهم
ينحدرون بها الى الحضيض ... الى درك الهاوية ، حيث الاستعمار
الاجمر الذي لو اطبق بمضالبه على بلادنا لما استطاعت ان تجد
للاعتاق من ريقه عبودية سينلأ ..

* * *

انقضى شهر على تلك الزيارة التي اسمعني فيها صديقي فريد
قصة كامل بونس ، فرغم الشوق اليه والى احاديثه لم استطع زيارته ،
فبعض اسباب تأخري عن زيارته كان عيد رأس السنة الجديدة
وما تخلفه من مشاغل ، كتصفية حسابات العام الماضي ، بحيث

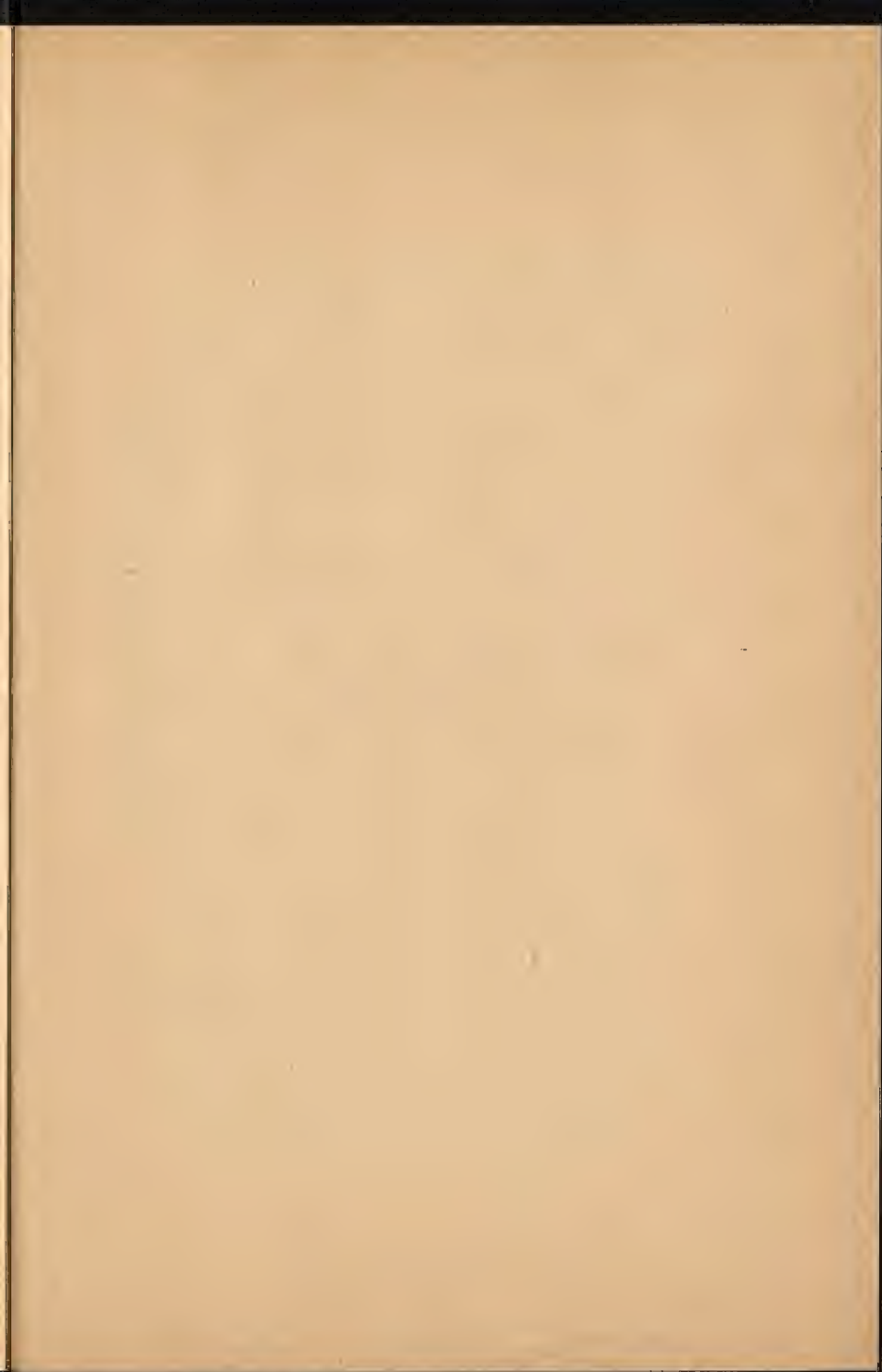
انهمسكت باعمالى حتى اذني ، واذا بالهاتف يوت وكان المتحدث
صديقي فريد ذاته ، وبعد ان افرأني السلام انبرى يعتب على
تأخري عن زيارته ، وانهى حديثه باصراره على وجوب حضوري
الى مخزنه ، لانه قد هيا لي مفاجأة سارة...

... حقاً لقد كانت مفاجأة طريفة ، فقد هالني ان اجد بين
موظفي مخزنه عامل جديد هو غاية في النشاط ، كان يتحدث الى
الزبائن بوقه واطفة ، ويساومهم ، ولا يتأخر عن بيعهم ، ثم يهرع
لتسجيل الحسابات ويتركها ليؤد على المحابر الهائفة ، ويبادر
ليصل هاتفاً بالمخازن يسألم عن سعر البضائع الجديدة ثم يتصل
ببعض التجار ليعقد صفقات تجارية ، وبقيت في حيرة من امري
وانا احقق به فاغر الفم دون ان انيس بينت شقة في حين كانت
الابتسامة تملو ملامح صديقي فريد الذي بادرنى بالسؤال ان
كنت اعرف الموظف الجديد ؟!

فهزئت رأسي نفياً .

فاذا به يقول : انه كامل !.. اجل كامل يونس ذاته !..
لقد ادرك اخيراً ضلال طريقه ومساوئه ففعل راجعاً من منتصفه
ليبدأ من جديد ، بعد ان طرح عنه تلك الافكار العقيمة ليصبح
- لأول مرة - مواطناً جديداً بناءً فنزل الى معترك الحياة ليشق
طريقه نحو مستقبل اسعد . ولبت جميع رفاقه الضالين يحدون حذوه
فيعودون من منتصف الطريق ليميدوا من جديد ...

عَوْدَةُ الشَّارِ ...



لا يا اخي لا تعجب لهذا التبدل ... لا تستغرب هذا
 التغيير الذي طرأ على افكاري ... على عقيدتي ... اندهش لانني
 تحولت الى بركان ثائر ، كلفني من حمم ؟! . واحاديثي محشوة
 بمتفجرات ؟! . اندهل لانني اختلطت بين اصاف مبشراً في حلت
 بافكار جديدة افك بها العصائب عن الاعين الخدوعة الخائفة
 للاواعية ؟! . وانير باحاديثي الطريق امام السذج من ايناء
 مجتبعنا العربي محدثاً اياهم عن تجارب مرت بي ودفعت ثمنها غالياً
 جداً ، ورغم ذلك فمنهم من يصدقني ، ومنهم - وهم قلة مخدوعة
 بهرهم هذه المبادئ ميريقيها وخدوتهم بأفيون امانيا واحلامها -
 لا يصدقوني ، لا بل ينعتوني بالكذب ظناً منهم ان هناك من
 يدفعني للمناداة بهذه الافكار الجديدة التي تقضح حقيقتهم المزيفة ،
 وتشجب مؤامراتهم الاستيعارية الذنيئة ...

وركن محدثي (آ كروب) الى الصمت ، فران السكون
 في ارجاء العرفة كأن الطير على رأسينا ... وبقينا كذلك بركة

راح آكوب خلالها يجدني بنظراته الثاقبة ليستطلع مدى تأثير
وقع كلاته في نفسي .

كنت ارقبه في صمت ، واستمع اليه في خشوع ، فقد كان
في ابواب صوته ما يدعو الى الاصغاء اليه في اجلال ، في حين ما
انفك يدق حافة طاواني بأنامله المعروقة ، دقاً رقيقاً نازلاً ، وتارة
اخرى بعصية تلبى ، عما يعتلج في اعماقه من ثورة وحدة محتدمني
الاوار ...

واستطرد يقول : اراك يا صاحبي قد اتسم وجهك بسمات
الاستغراب والدهشة ، اجل ، لقد اثرت بجدني هذا فضلك
وغريزة الاستطلاع فيك ، اذن فمن واجبي ان اكشف لك عن
سبب ثورتي هذه المستعرة غير المنتظرة ...

وعاد آكوب الى لقاوته يستل منها انفاً متلاحقة ينقشها
في جو مكثي زفرات ترتفع منها اسم الاقامي وارهبا فحياً ،
وتتم يقول :

سببها ما شئت ، قصة ... او حكاية ... او حادثة ... او
سيرة حياة انسان ... لك مطلق الحرية في التمتع الذي يروقك
ان تطلقه عليها ، ولكن الشيء الذي يجب الاحتفي عنك هو انها قصة
حياتي ، وما ساة عشت كل حرف منها ، اسردها عليك كما حدثت
دون تحوير او زيادة وتقصان :

كان ذلك لخمسة عشر عاماً خلت ، اذ كنت آنذاك في طيش

الشباب وكلية فتوة وحيوية حين كنت اعمل لتضية واحدة هي
السبيل لتحرير بلادتي (ارمينيا) من ربقة الاستعمار الاجر ،
كنت ثروة اني حلت ابشر ابناء امي بافكاري ، وافتح اذهانهم
الى قوميتهم الارمنية ليضعوا مصلحتها فوق كل شيء ... واذا
بأسمي على كل شفة ولسان واذا بي اصبحت عضواً بارزاً في منظمتي
يعتمد عليه في المهمات ...

وكان خير جزاء لثقتي ، واشهى ثمرة جنيها هي اني اصبحت
نائباً لرئيس جمعيتي !..

وهكذا سارت عجلة حياتي ...

وان انس فلا انسى ذلك اليوم الذي جاء فيه من يخبرني
ان هناك من يود الاجتماع بي ، ولم اجد في ذلك غضاظة ...

عفوك يا اخي ... لقد سها عني ان افيدك ، فقد كان ذلك
لعشرة اعوام خلت .. وكانت مفاجأة غير منتظرة اذ كان هذا
المجهول صديقي القديم (وانيس) الذي كان يدين ذات يوم
بنفس افكاري ، بيد انه نبذها واعتنق افكاراً اخرى !.. واحتدم
بيننا اوار الجدال وتشعب الهجوم ... وفي الجلسة الثانية انجرفنا
كرة اخرى في مناقشة حامية الوطنيين قارة اهاجم حزبه الهدام ،
واخرى افسح له المجال ليشرح لي مرمى منظمته ويوضح اهدافها وفي الجلسة
الثالثة فصح له المجال فراسخ فينداقوا الويل يحمل على العصبيات القومية
في الاوطان ، والنعرات الوطنية في الامم ، وخرجت بعدها

من مقابلته وفي احماقي حراخ وثورة ، وكانت تدوي في اعماقي
كلمات :

(الانسانية المعذبة ... حالج البشرية العام ... امة واحدة
على وجه البسيطة ... السلم العالمي ، مقاومة الحرب ... شجب
المؤامرات الاستعمارية التي نحاك لبلائنا... الرغيف ولقمة العيش...
رفع مستوى العامل الحياتي ! ..)

جلسات هادئة اعقبها اجتماعات ، وتلتها محاضرات ، فاذا
بيريح عقيدته يبهريني ، واذا بي احسن مع الايام ان انقلاباً جديداً قد
وجد سبيله الى حياتي ! .. الى نفسي ! .. واذا عيناى تفتتحان على
طريق جديد لا قبل لي بها ، لا تعنى من تكالبي على الخصوصيات التي
كنت اخص بها ابناء طائفتي وامتي ولا تردعن المناداة بفكرة قومية
ضيقة محدودة الآفاق كانت قد حجبت النور عن ناظري وجعلتني
غنيها في منأى ! ..

ورجعت الى نفسي احاسبها ، فيما عسر الحساب ، اذ الفيتها
ملطخة في كل عار ، واذا بمكاني على الحضيض اتودي في حمأة الافكار
الرجعية والمنطق القاصر ، ففجئت من نفسي وثمنت لو ان احجر
عليها لارد عنها انظار الشعب المتألفة بفيض من الامل الباسم .

وكان ان انقلبت على زملائي رفاق الطريق ، الذين آليت
على نفسي يوم اديت القسم الحزبي على ان اسير معهم حتى النهاية
فقد وجدتها - بعد ان اعتنقت الفكرة الجديدة

وانضمت الى (موكب المناضلين الاحرار) الدائمين على السير في
(مضارهم التصاعدي) - انها لم تكن الا طريقاً من شأنها ان تجر
العالم اجمع الى الدمار والقضاء .

وكان لاقالني افكاري القديمة وحلي افكاراً تطورية جديدة
اثار كبير في الاوساط التي عرفتني !..

وكما هو شأنى دائماً وابدأ انني ذو عجلة في كل ما احمله من
الافكار ، لاجلني الضغط والوعيد ، لا بل يزيداني اندفاعاً في
حل تبشيري بفكرتي .

وكان للتهديدات الارهابية التي تلقينها من منظمي الاولى
اثره في اندفاعي ونشاطي ، اذ تحولت الى كتلة كلها حيوية ،
اعمل جاهداً ليلانهاراً للتبشير بفكرتي الانسانية التي تؤول الى
خلاص ابناء وطني اولاً ، وانتشال البشرية المعذبة المتردية في وحول
التأخر والاضططاط ثانياً ، وانقاذ ثلثا المجتمعات الانسانية من حمة
الافكار الرجعية الضيقة ، التي من شأنها ان نعود بالوبال عليها وعلى
اوطانها ...

وانتهيت الى انه يتوجب على الجميع ، جميع سكان المعمورة
السير على هذا الدرب الجديد المؤدي الى (ذروات العز والجد)
حيث (سيخيم سلام دائم على الانسانية المعذبة) وتمتقق (عدالة
عالمية مثلى) .

ورحت ورفاقي الجدد نعمل جاهدين ليل نهار لتعبيد هذه

الطريق المؤدية الى جنة طرد منها ابونا آدم كما جاء في اساطير التوراة ، جنة جديدة سيدخلها وجل القرن العشرين ليعيش مع اخيه الانسان في بجموحة العيش الرغيد والسعادة الكاملة ، هذه الجنة التي لا ولن يخرج منها الانسان بعد اليوم .

وانخرطت أعين من منهل الفلسفة المادية كؤوساً مسترعة وانا سادر ساه ، فغور بهذه الافكار ، احس اني الآن ، والآن فقط ، اصبحت عضواً انسانياً فعالاً في هذا المجتمع الانساني الواسع .

واذا بهم يشيرون اليّ بالبنان وهم يقولون :

(هذا هو الذي قاد التظاهرة الاخيرة وهو الذي لفظ ذلك الخطاب الثوري الناري مندداً بحكومات الاستعمار والراسمالية) .
تظاهرات كثيرة قدتها كان النصر ابداً ودائماً حليفنا ، وكثيراً ما ادت بي الى السجن فكنت ادخله وقلبي يطنع بالبشر والسرور ... ادخله لا كالمسجون المغبون المغلوب على امره ، انما كالمنتصر الظافر ...

حتى غياهب السجن لم تكن لتحد من اندفاعي والجلولة دون نشر افكاري بين المسجونين والمجرمين ، ولم لا ؟ او ليسوا مواطنين لي قسا عليهم المجتمع وحرهم من لقمة العيش ، فضلوا سواه السبيل وانخرطوا في تيار الاجرام ؟ !

* * *

وكانت اعظم فرحة مرت عليّ منذ ان هبطت هذه الغبراء ،

تلك الساعة التي وصلت فيها لجنة من ارمينيا فييد، بأننا سنعود! ..
اجل سنعود الى ارض الوطن الذي ابعد عنه اباؤنا واجدادنا قسراً.

وها نحن في الطريق نمر عباب اليم الى محط الآمال
والاحلام ، الى حيث تطبق الفكرة التي طالما ناقت نفوسنا لتطبيقها
منذ زمن بعيد... وها هو ذا الفجر يشرق علينا وقد قاربت باخرتنا
مشارف الوطن ... فجراً لم نر له مثيلاً ... واذا بالدموع تتراحم
الى اهدابنا لتتهير كالسيل الدافق رغماً عنا ، لقد كانت دموع
الفرح ... دموع من احرق الشوق فؤاده الى لقاء من يحب ...
واذا بنا نخر جميعاً ساجدين نردد : ارض الوطن ... ارض
الوطن ... جنتنا الموعودة ...

* * *

مر اسبوع ونعنا خلاله في مجبوحة من العيش الرغيد وسط
تلك اللجنة ، اذ نزلنا ضيوفاً على حكومة بلادنا ، ومنعشاً بزيارة
ضواحي العاصمة (يرفان) والتفرج على آثارها ومبانيها وازدهارها ..

بيد انه ما كاد ينقضي الاسبوع حتى عهد لكل منا بالعمل
الذي ارادته وفرضته عليه الحكومة ! ..

كما وسجلت اسمائنا في الجيش الاحتياطي شبيهاً وشباناً ، وبعد
ايام ابتدأنا نقوم بالتدريب العسكري ! ..

وشيئاً فشيئاً اتضح لنا الواقع المؤلم ، واتراحت عن اعيننا
اغشية الزيف والحداغ التي كانت الدعاوات المعروضة قد اقتها

عليها ، وبانت لنا الحقيقة المرة جلية لا يستورعورتها حتى ولا ورقة التين ، لقد كانت حكومة بلادنا ، حكومة عملية ومادية ، بيد اننا لم نكن لنوجدوا ان تكون (عملية) على ذلك الشكل الوحشي الخفيف .

ففي الحرب العالمية الثانية كانت ارمينيا شأنها شأن الدول الدائرة في فلك الاتحاد السوفياتي قد قدمت الآلاف من ابنائها طعمة للحرب ، وفداء للدفاع عن روسيا والحفاظ على شؤونها ... ومستعمراتها المتراصة الاطراف من الغزو النازي .

وبعد انتهاء الحرب ففكر الطواغيت الحمر في املاء المكان الشاعر ، فكان ان استدعوا من بلادنا ... اذن ما نحن الا وقود جديدة وكبش القداء للآرب وغابات اسيااد الكرملين .

واذا باحلامنا اوهى من خيوط العنكبوت ، وآماننا تتحطم تحت اقدام حكومة دكتاتورية مطلقة يشرف عليها حكام تحركهم انامل الكرملين كما يحلو لها ، فيأثرون بأمرها وينفذون مآربها دون ان يكون لحكومة ارمينيا اي سلطة اوسيادة ، شأنها شأن الدول المستعمرة من اسيااد الكرملين والراوحة تحت نيرها ، وويل لمن يعصى من المواطنين الارمن للكرملين مطلباً ، فان الاعداء او النفي الى بجاهل سيبيروا ذلك الجحيم الجليدي ، او دفنه حياً في غياهب سجن (لوبيانسكا) يكون مصيره ، متهماً (بالحيانة العظمى) . (والتأمر) على سلامة الدولة !

لقد كان الشعب يومه عبداً مسيراً تستغله حكومة مستبدة
فتأخذ منه أكثر مما ينتج لتبته أقل مما يمكنه الاستهلاك ! ..

وإذا بجبههم للانسانية ومناذلتهم للعلم ، كذب ورياء وفغرير
بالسذج خارج الستار الحديدي ، اذ تبين لي ان في كل مدينة من
مدنهم معامل تخرج السلاح والمتفجرات من شتى الانواع
والاحجام ، وهم يدربون شبابهم القاصر ، وشيوخهم العجز ، على
افانين الحرب مفتخرين بأنهم يعدون العدة للمعركة الفاصلة بينهم
وبين العالم الرأسمالي ، وكانوا في الحقيقة اكثر من واقعيين ، فقد
سمعت جنابلاً احمر يردد :

(ان القوة وحدها هي التي ستفرض احترامنا وافكارنا
ومبادئنا على العالم ، وبذلك وحده تقرر السلم الذي نريده ،
ونرتقي بالانسانية الى المصاف الذي نرغب) .

وبادرة اخرى لفتت انتباهي بعد ايام وهي اني وبعض
المهاجرين كنا حيناً ذهبنا اوسرنا نشعر ان عيون (الانكفدا) تتبعنا
ونصفي الى احاديثنا ، وتحكي - خاصة علي - خطواتي لاني كما
سمعت منهم ، انني رجل يخشى جانبه ! ..

* * *

وكانت تأثرتنا نحن المهاجرين الجدد الذين وضعنا لبايا الحرية
في البلاد العربية اذ لم ترق لنا هذا اللون من الحياة البوليسية
ومبادئ العنف والفسوة ، وقررنا في اجتماع سري القيام

بتظاهرة ...

وفعلا كانت تظاهرة لم تشهد مثيلا ازمينيا غامقة و يرفان
خاصة من قبل مثلاً .

وما كاد مركبنا الصغير يسير بجنازا شوارع يرفان ويصل
الى الساحة الواسعة الواقعة بالقرب من فندق (انتورست) حتى
انضم اليها الكثير من الاهلين والعمال والفلاحين وحغار الموظفين
والطلاب الذين ارهقهم الملاحقات والضغط والارهاب البوليسي
والمعاملة الشاذة من قبل حكومة لا ترحى حرمة المنازل والكرامة
الفردية وتضرب بكافة الاعتبارات الانسانية عرض الحائط !!

خرجنا نعلن استنكارنا لمثل تلك القسوة والوحشية التي
كان يعامل بها الفلاح والعامل رغم ما يبذل من جهود جبسارة في
تحسين الانتاج وتقديم اكثر ما يمكنه تقديمه من عمل ونتاج .

وانعبر عن رأينا ، أليس مذكورا في المبادئ ان
للفرد الحق كل الحق في التعبير عن رأيه ؟ ..

وكانت ساعة حاسمة ، اذ برزت لنا فصيلتان من البوليس
الاخر المسلح ، وبدلاً من ان يفرقوا شملنا بسلام كما كان يصنع
البوليس في البلاد العربية ، فقد أطلقوا العنان ليران رسائهم !!

التظاهرات في بلاد العالم البعيدة عن الستار الحديدي تطلق
عليها الدعاوة المسكوفية بأنها (وعي شعبي) و (نضال طبقي)
اما في الدول والمستعمرات الروسية فاختلال بالنظام ، وفرد

على الاوضاع ، ووجود في حق البلاد ، وخيانة وطنية عظمى ... !
لذا اطلقوا العنان ليران رشاشاتهم بقسوة ووحشية واغرقوا
بسيل من الرصاص ، فسقط منا من سقط ، وجرح من جرح ... !
وهرب من وجد الى ذلك سيلاً ... !

و كنت احد هؤلاء الفلائل الذين لاذوا بالفرار ، واذا
الانباء تحمل لنا ان كثيراً من الذين تظاهروا معي قد اعدوا رصاً
بالرصاص ، وآخرون زجوا في غياهب السجون ، وآخرون نفروا الى
سينين يا ذلك الجحيم الجليدي ... !

كان (الانكفيذا) يجد في البحث عنا ، بيد اننا كنا مختبئين
في قرية (آوش) حيث جلّ سكانها من الثائرين على الاوضاع
الراهنة في ارمينيا ، ولم تكن قرية آوش القرية الوحيدة الثائرة على
الايواضع والمعاملة التعسفية الاستبدادية التي يعامل بها المواطنون
في ارمينيا ، بل اتسع لي الاختلاط بالكثير من الفلاحين والعمال
من سكان القرى المجاورة ، فتبين لي ان جميعهم يحملون في قلوبهم جذوة
الثورة على الاوضاع في البلاد والنقمة المطلقة على ديكتاتوريه المستبدين .
غداً يريد انهم كانوا ينتظرون بفارغ الصبر الساعة الحاسمة التي
سيقررون فيها مصيرهم في الحياة ليعتقوا من ربقة العبودية الجحراء .

وحين شعرت ان (الانكفيذا) ورجال البوليس الاحمر دائبون
في البحث عني وعن زملائي قررنا رغماً عنا الحرب .. اجل الحرب
من تلك اللجنة الموهومة التي عبدنا الطريق للوصول اليها ، فاذا

نحن نحفر بأيدينا لانفسنا الحرية دون ان ندري .. نفقاً الى الجحيم !

توقف آكوب عن الكلام لحظة ثم استأنف قائلاً :

لهذا يا صاحبي تراني منذ ان عدت قد شهرت سلاحي في وجه اصحاب هذه الفكرة الجهنية ورحت احاول جهداً استطاعتي ان افكك العصائب عن اعين الناس وانير بصباحي الوضاء الطريق امامهم الى الحقيقة ، الى الواقع دون تمويه او تزوير ... وابقولوا ما سألوا ... وليثرتوا ما طابت لهم الثمرة ... ليثسروني بأنني عميل الاستعمار ، وحشي بعيلي هذا اني اوضي ضميري الوطني ، ووجداني الانساني ...

لكن شيئاً واحداً اريد ان اقله هؤلاء المواطنين الضالين : ليت روسيا تلك الجنة الموهومة تفتح ابوابها على مصراعها كبقية البلاد الديمقراطية التقدمية في العالم ، ولجميع من يرغب بزيارتها ، ايروى الناس ويشاهد العالم اجمع في أي جحيم يتردى شعبها البائس !!

* * *

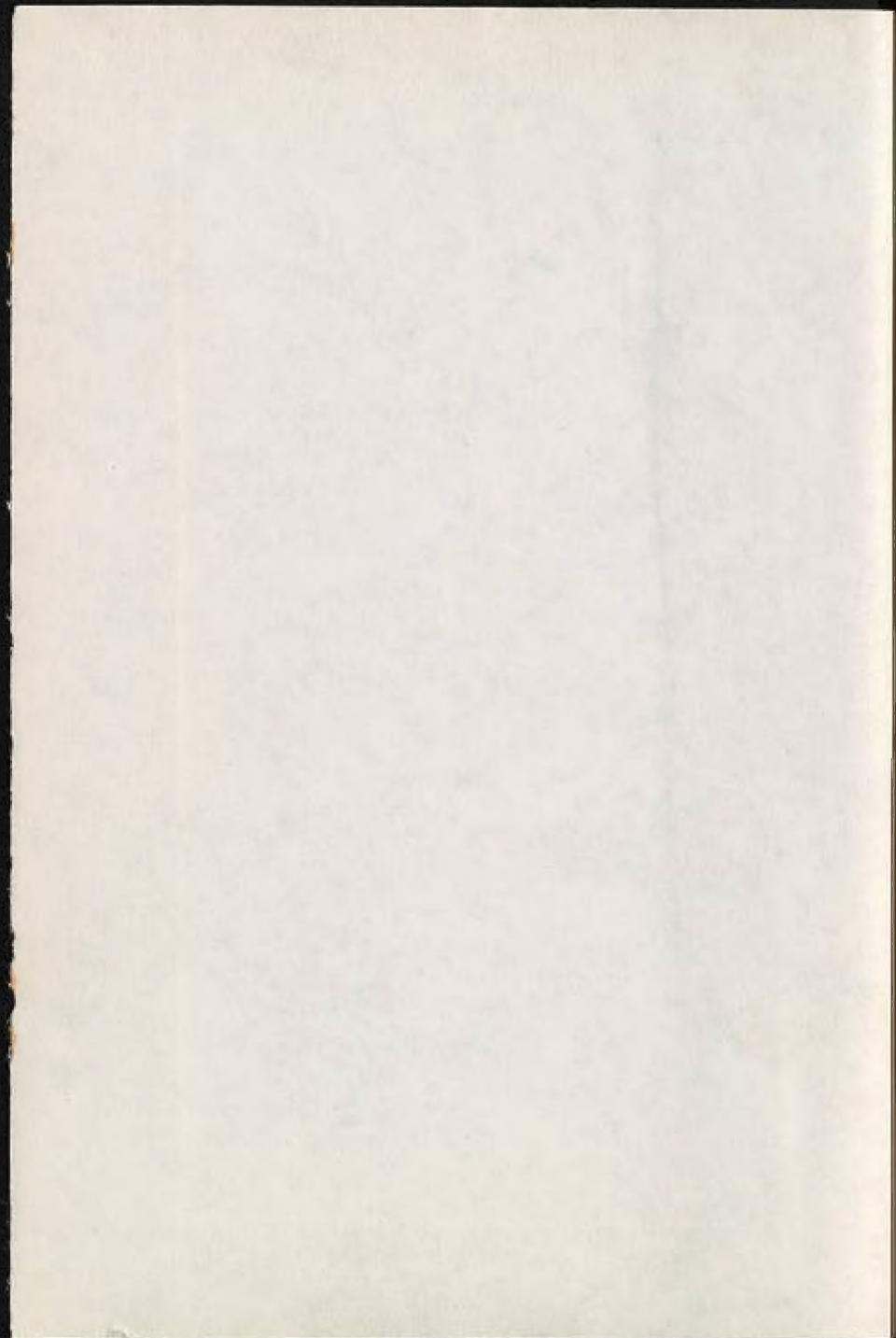
افقت من غفوة احلامي ومن استرسال في الاضغاء الى هذا الحديث الغريب ، فاذا بطيف آكوب قد توارى من مكثي ، فقد كان رجلاً عملياً لا يحب ان تضع عليه لحظة واحدة دون يعمل على نشر الحقائق عارية ، ونفضح الاضاليل التي انطلت على الكثير من السذج الابرياء من مواطنيه ، خشية ان يدفعوا ما دفعه هو من عن في حفرهم لامتهم ومجتمعهم طريقاً الى الهوة الجمراء ، ونفقاً ... الى الجحيم .

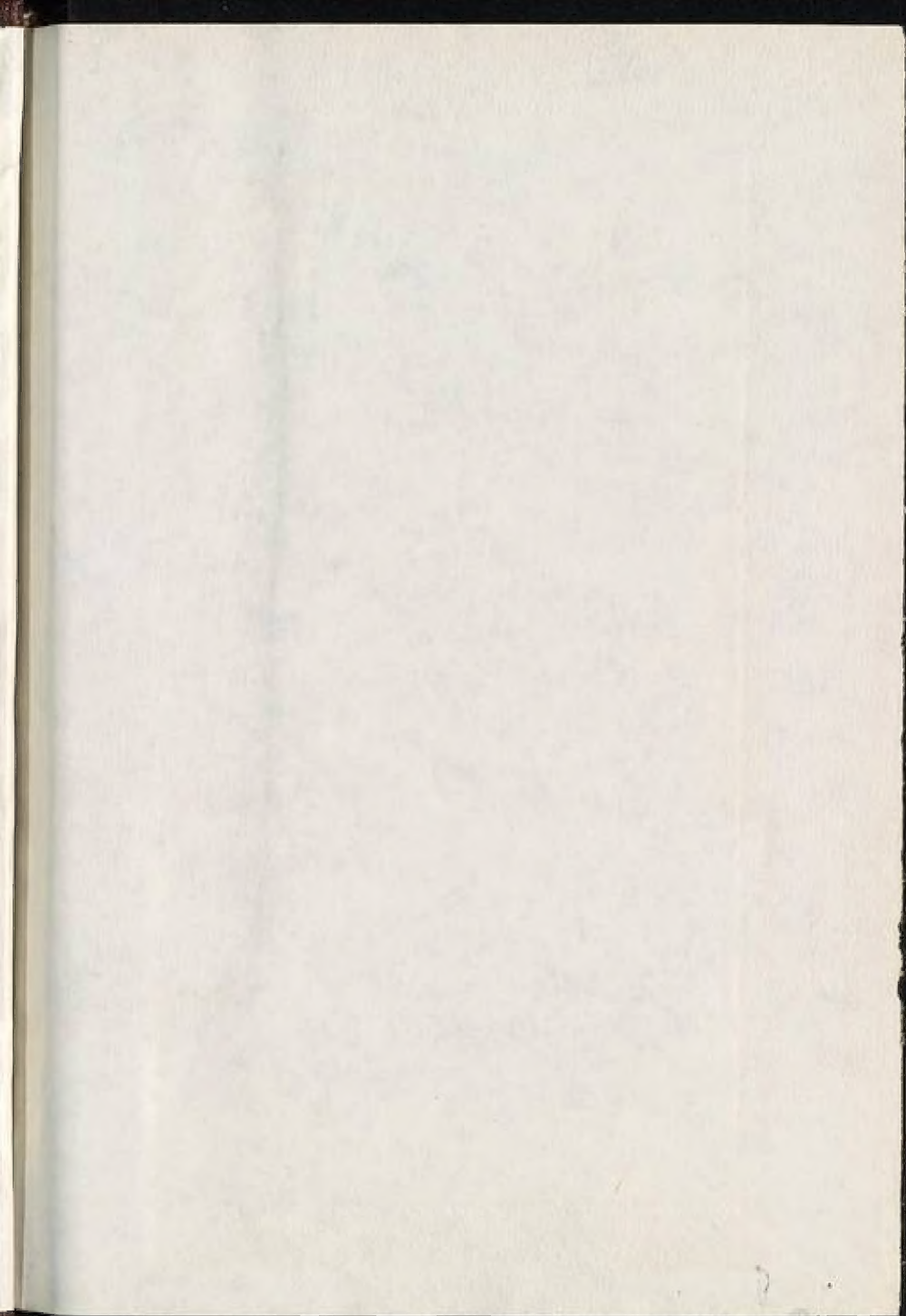
فهرست

الاهداء	٣
مقدمة	٥
خجارة الشطرنج	١١
غفوة ...!	٢٣
الافيون ...!	٣٥
حدث ذات ليلة ...!	٤٧
اعظم اب	٥٩
المواطن الجديد	٧١
عودة النائر ...!	٨١

ملاحظة :

في مير مطالعة هذا الكتاب ، قد ير القاريه ببعض اخطاء
مطبعة لا تخفى عليه فالرجاء المندرة .





JUN 18 1980

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



1000092045